تطور مفهوم الببليولوجيا من «علم الكتاب» إلى «علم الاتصال المكتوب» دراسة تحليلية تاريخية

إعداد:

د. محمد جلال سيد محمد غندور

مدرس علم المعلومات - جامعة القاهرة

كلية الآداب - بنى سويف

١ - المقدمة

ترجع نشأة مصطلح الببليولوجى - حسب المصادر الموثقة - إلى بداية القرن التاسع عشر، ويعزى الفضل فى ابتكاره - أو استخدامه - إلى جابريل بينو PEIGNOT،[١] ومنذ ذلك الاستخدام الأول وحتى يومنا هذا، طرأت تطورات كثيرة وهامة على هذا المصطلح والمفاهيم المتعلقة به، وقد اتسمت هذه التطورات بالتذبذب وعدم التواصل، والسلبية فى بعض الأحيان، ويرجع ذلك إلى بعض الظروف والمعطيات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى كان يمر بها المجتمع الدولى، والتى أثرت بالتالى على كل ما يتصل بالمجالات العلمية والأكاديمية ولم يكن الببليولوجى ليستثنى من ذلك، مما أدى إلى التأخر الواضح لظهور الببليولوجى كعلم معترف به على «خريطة العلوم الإنسانية» حتى النصف الثانى من القرن العشرين.

ومنذ أن قدّمه وعرّف به جابريل بينو G. PEIGNOT «كعلم الكتاب». فى بداية القرن التاسع عشر، فلم يظهر مصطلح الببليولوجى فى كتابات الباحثين، إلا فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وذلك بفضل العالم الببليوجرافى البلجيكى المعروف بول أوتليه Paul Otlet مما اعتبره البعض «إعادة إحياء»، «أو شهادة ميلاد» جديده للمصطلح، وقد أعاد أوتليه Otlet المصطلح برؤية جديدة على ضوء مفاهيمه لعلم التوثيق Documentologie، التى كان ينادى بها ويعمل على نشرها. وقد توج أوتليه Otlet أعماله ودراساته حول الببليولوجى، بعمله الشهير الذى نشره عام١٩٣٤[٢].

وفى خلال الفترة الزمنية ذاتها، قام العالمان الروسيان لوجين ولسوفسكى Lawiagin و Lisovskiبنشر عمل لهما - وإن لم يكتب له الشيوع والانتشار - عام ١٩٢٦م، قاما فيه بدراسة وتحليل وتطوير بعض النظريات حول «الببليولوجى» كعلم للكتاب[٣].

بعدها طويت صفحة أخرى من صفحات «الببليولوجى»، وتم - تقريباً - نسيان هذا المجال العلمى، ولم يعد أحد يذكر عنه شيئاً وأُهمل إهمالاً كاملاً من قبل الباحثين الأكاديميين، إلا من مجرد تلميحات سريعة تذكر فى بعض الأعمال

بين حين وآخر. وبنهاية الحرب العالمية الثانية، وبداية الانفتاح العلمى، وتطور المفاهيم المتعلقة بالمجالات العلمية المختلفة، بدأ «إحياء» أو «إعادة إحياء» هذا المصطلح مرة أخرى، من قبل مجموعة من العلماء والأوروبيون الذين أخذوا على عاتقهم مسؤولية «إقحام» هذا العلم مرة أخرى على «الخريطة العلمية الأوروبية» ومن ثم على «الخريطة العلمية العالمية».

وتوالت الدراسات والبحوث، والندوات والمؤتمرات، وغيرها من الجهود العلمية والأكاديمية، وأسفرت هذه الجهود عن تطور مفهوم الببليولوجى من «علم الكتاب إلى علم الكتابة»، ولم تتوقف جهود وأنشطة علماء المجال عند هذا الحد، فأنشئت الجمعيات المتخصصة فى المجال، وبدأت الجهود التى كانت منذ فترة ما بعد الحرب ـ تحاول خلق الصلات التفاعلية، والربط ما بين هذا العلم والعلوم الإنسانية الأخرى، تتبلور وتأخذ شكلاً محدداً حتى استطاعت أن تؤكد على أن الببليولوجى، أحد روافد علوم المعلومات والاتصالات، وكانت لكتابات علماء أمثال روبير استيفال R. ESTIVALS، روبير اسكاربيه R. ESCARPIT، وجون ميريا J. MEYRIA ، وغيرهم من العلماء الأوربيين، الفضل فى توسيع دائرة النقاش العلمى حول هذا العلم، والتى أدت فى النهاية إلى قيام وإنشاء «الجمعية الدولية للببليولوجى L' Association Internationale de Bibliologie»، ومن خلال فرق العمل التى كونتها وأشرفت عليها هذه الجمعية، بدأت تنمية وتطوير المفاهيم لهذا العلم، وتبنت الجمعية خطة ذات أبعاد دولية، تمثلت فى عقد مؤتمرات، وندوات تحمل اسم هذا العلم، وتدور حول مفاهيمه، وتمثلت أيضاً فى رعاية البحوث والدراسات فى هذا المجال، سواءً على صعيد الرسائل الأكاديمية، أو على صعيد أبحاث العلماء المتخصصين، وأفرزت هذه الجهود «ألية عمل دولية»، ترعى برامج البحوث الببليولوجية، والموضوعات المتعلقة بها، وأدى ذلك فى النهاية إلى تطور مفهوم الببليولوجى من «علم الكتاب» إلى «علم الكتابة» وأخيراً استقر على مفهوم «علم الاتصال المكتوب».

من السابق، فإنه يبدو من المعقول، أن نطرح التساؤلات حول ماهية هذا العلم وأهميته. ولما أخذ هذه الأبعاد الإقليمية ـ فى أوروبا ـ ثم توسع وخرج من هذا الإطار إلى العالمية، وتساؤلاتنا تدور حول، تاريخ هذا العلم، متى نشأ؟ وكيف نشأ؟ ـ وما هى المفاهيم المتعاقبة التى ارتبطت به؟ ولماذا هذا التحول فى المفاهيم (فقد تحول من «علم الكتاب» إلى «علم الاتصال المكتوب» مروراً بمفهوم «علم الكتابة»)؟ ـ وهل من الممكن شرح وتفسير هذه المفاهيم، على ضوء المعطيات التاريخية، والإنتاج الفكرى للمجال؟.

وسأحاول فى هذا البحث الإجابة على هذه الاستفسارات، من خلال استعراض وشرح وتحليل وتفسير الجهود الدولية وخاصة الأوروبية التى تمت فى هذا المجال، وأسفرت فى نهاية الأمر، على إثبات أحقية الببليولوجى، ليصنف «كعلم للاتصال المكتوب»، ويأخذ مكانه بين علوم المعلومات والاتصالات.

٢ ـ نشأة المصطلح:

فى الواقع، لم أجد فى كتابات المتخصصين المحدثين منهم أو القدامى، ما يحدد أو يفسر لنا بصورة قاطعة، كيفية نشأة ذلك المصطلح. ولكن يمكننا القول ـ فى هذا الصدد ـ بأن مصطلح ببليولوجى، ارتبط ارتباطاً وثيقاً بمصطلح أقدم منه

نشأة واستخداماً، ألا وهو مصطلح ببليوجرافياً، والعلاقة تبدو واضحة بين المصطلحين، سواءً من زواية التركيب اللفظى، أو من زاوية المفاهيم المرتبطة والمحيطة بكلٍّ منهما. بجانب أن رؤية المتخصصين لهذين المصطلحين كانت متقاربة للغاية، ويظهر ذلك فى استخدام جمهرة الباحثين لكلا المصطلحين فى الإنتاج الفكرى للمجال.

ومن زاوية التركيب اللفظى، فمصطلح ببليوجرافيا يكتب باللغة الانجليزية Bibliography ، كما يكتب بالفرنسية Bibliographie . ونجد أن مصطلح ببليولوجى يكتب Bibliology بالانجليزية، أما فى الفرنسية فيكتب Bibliologie. ومن المعروف أن هذه المصطلحات تعد من المصطلحات المركبة، التى تتكون من لفظين يمكن إرجاعهما إلى أصول لاتينية، ونجد أن المصطلحين يشتركان فى الشق الأول لكل منهما حيث يرد لفظ Biblio، المنحدر من الأصل اللاتينى Biblion ويعنى «كتاب». أما الشق الثانى فنجده فى المصطلح الأول Graphy بالانجليزية أو Graphie بالفرنسية، وكلاهما مشتق من اللفظ اللاتينى الحديث Graphos، الذى أُخذ بدوره من اللاتينية القديمة Graphein، ويعنى «يكتب» أو «كتابه»، وقد عرّف قاموس ويبستر Webster مصطلح ببليوجرافيا، بأنها تاريخ الكتب، دراسة الصكوك... المعلومات التى تستعرض تاريخ الكتابات[٤]. أما بالنسبة لمصطلح ببليولوجى فالشق الثانى Logy بالانجليزية و Logie بالفرنسية، فهى لاحقة من أصل لاتينى تعنى علم أو منطق. ومن هذا يتضح لدينا من التركيبة اللفظية لكلا المصطلحين أن أولهما «ببليوجرافيا» يعنى «كتابة الكتاب»، والآخر «ببليولوجى» يعنى «علم الكتاب». والتشابه ما بين المصطلحين سواء من زاوية التركيبة اللفظية أو من زاوية المعنى اللفظى، يبدو واضحاً وجلياً ولا يحتاج إلى شروح مطولة، وبالرغم من هذا التشابه إلا أننا نلاحظ شيئاً هاماً يفرق ما بين المدلولان اللفظيان لكل منهما، ففى حين أن كلمة ببليوجرافيا [كتابة الكتاب]، توحى بالمفاهيم المتعلقة بالجوانب العملية والتطبيقية للكتاب، نجد أن مصطلح ببليولوجى [علم الكتاب]، يعطى الإيحاء والانطباع بالجوانب التنظيرية والمفاهيم المنطقية المجردة للكتاب.

وعلى أى حال، بما أن مصطلح ببليوجرافيا، حسب الشواهد التاريخية، يسبق فى ظهوره واستخدامه مصطلح ببليولوجى، فإنه يمكن القول، بأن هذا الأخير مشتق من المصطلح الأول ببليوجرافيا، والعكس ليس صحيحاً.

ويبدو أن العلاقة بين هذين المصطلحين ظهرت للمرة الأولى، فى عمل بعنوان «البيليوجرافيا السياسية» «Bibliographia Politica»، قام به جابريل نوديه Gabriel NAUDE الذى كان يعمل سكرتيراً ومكتبياً لدى الكاردينال مازارين MAZAR-IN، وذلك فى عام ١٦٣٣م، وقد أشار روبير استيفال R. ESTIVALS إلى ذلك، فى ورقة عمل تقدم بها إلى «الندوة الدولية الرابعة للببليولوجى» التى عقدت فى تونس ١٩٩٠م؛ وقد أضاف استيفال ESTIVALS، قائلاً أن ل. ن. مالسليه L. N. MALCLES، قد لاحظ أن الباحثين فى عصر جابريل نوديه G. NAUDE، كانوا يستخدمون المصطلحات التخصصية للمجال بطريقة تبادلية، لتعريف وتوضيح نفس المواضيع والمفاهيم، ويذكر فى هذا الصدد مصطلحات مثل مكتبة Bibliothe-ca، كشاف Index ، فهرست Catalogue و Reper-torium، ولذا لا يستبعد أن يكون المصطلحان، ببليوجرافيا Bibliographie ، وببليولوجى Bibliogie، كانا يستخدمان بنفس الكيفية.

ولذا نجد عملا لجيلوم فرنسوا ديبور Guillaume Francois DEBURE، نشر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، بعنوان "Bibliographie Instructive Ou Traite de la Connaissance Des livres Rares et Singuliers [البيليوجرافيا التعليمية: أو رسالة المعرفة للكتب النادرة والفريدة][٥]، حيث نلاحظ هنا، التداخل الواضح ما بين المفاهيم المتعلقة بالبيليوجرافيات، وتلك التى تخص دراسة الكتب كأوعية للمعرفة، أى ما يدخل فى مفهوم البيليولوجى.

وقد أشارت د. هـ. هيرتزل فى مقالها الذى نشرته فى «موسوعة علوم المكتبات والمعلومات»، إلى هذه الظاهرة بقولها «« بقدوم القرن الثامن عشر، كان مصطلح ببليوجرافيا فى فرنسا، يعنى «الكتابة عن الكتب»، ثم تطور هذا المفهوم ليصبح «العلم الذى يتعامل مع الإنتاج المكتوب»، وأخيراً أصبح يعبر عما يسمى «بعلم الكتاب» »»[٦].

وعلى أى حال، يجب أن نأخذ فى الاعتبار، الفرضية القائلة بأن المحاولات التنظيرية لتوليف وتوليد وخلق مصطلحات جديدة من خلال معطيات أنظمة علمية، وتطبيقات وممارسات مهنية قائمة بالفعل، تستند على الرؤية الصحيحة للبيئة الاجتماعية المحيطة بهذه المصطلحات. وهذا هو ما يتحتم علينا الأخذ به عندما نتعرض لمناقشة نشأة مصطلح البيليولوجى. ومن الواضح أن المفاهيم الأساسية الأولية التى ارتبطت بهذا المصطلح تشكل معظمها فى القرن التاسع عشر، وقد تميز هذا القرن بالمناخ الثقافى الخصب، والثراء العلمى الواسع، حيث يوصف هذا القرن، ـ بحق، بالنسبة للمجتمعات الأوروبية ـ بـ«قرن المعرفة»، و «الآراء الفلسفية المتجددة»، وهو القرن الذى شهد تغيرات جذرية فى مجال المكتبات والمعلومات المكتوبة، حيث تم فيه تأميم عدداً كبيراً من المكتبات الضخمة المتميزة التابعة للأديره والمؤسسات الدينية لصالح الدولة، وتطوير النظام الببليوجرافى، تمهيداً لعمل الببليوجرافيات الوطنية، كالببيوجرافية الوطنية الفرنسية التى أمر بها نابليون عام ١٨١١ ـ ١٨١٢م، كل هذه الأحداث والمعطيات، مثلت وجسدت بيئة اجتماعية تخطت فى تصوراتها كل حدود التقنيات الوصفية والتصنيفية، لأنواع الببلوجرافيات المعروفة ـ آنذاك ـ ومفاهيمها الشائعة، فكانت فترة «بعث» حقيقية، أعيد فيها التنظيم الشامل للمعرفة ومصادرها ومؤسساتها القائمة، وخلقت ـ بالتالى ـ بيئة مواتيه للتنظير وقيام الفلسفات الجديدة، ولذا ليس من المستغرب أن تكون نشأة مصطلح «البيليولوجى» جاءت وليدة هذه الفترة، وذاك العصر، كتعبير عن رغبات العاملين فى مجال المكتبات وما يتعلق بها من أنشطة، لوضع أسس تنظيرية وعلمية للممارسات المهنية والتطبيقية التى يقومون بها. فجاء مصطلح «بيليولوجى»، المنبثق من النشاط «الببليوجرافى»، ليبلور طموحات المنتمين لهذا المجال.

هذا كل ما نستطيع أن نقوله اليوم عن نشأة مصطلح «البيليولوجى»، وهو ـ كما يبدو ـ غير كاف لتوضيح هذه النشأة بطريقة حاسمة، ويحتاج الأمر إلى مزيد من الأبحاث والدراسات الأكثر عمقاً حول هذه القضية.

٣ ـ نشأة العلم:

لايوجد الكثير من الكتابات التى تفسر نشأة البيليولوجى كعلم، ويبدو أن هذه القضية لم تلق عناية كبيرة من الباحثين، وانعكس ذلك على قلة الكتابات حول هذا الموضوع. وقد يرجع ذلك إلى المسار المتذبذب الذى اتسم به تاريخ هذا العلم، وفترات الظهور والاختفاء والانقطاع والاستمرارية

على مدى قرنين من الزمان، مما جعل من الصعب على الكثير من الباحثين متابعته بدقة، ومحاولة الإجابة على التساؤلات كيف؟ ولماذا؟. وركزوا جل اهتمامهم على محاولة تفسير العلم نفسه، وعلى المفاهيم المحيطة به. إلا أن هذا لايعنى أنه لم يكن هناك من العلماء من تصدوا لهذه القضية، وأدلوا بآرائهم ورؤيتهم ومنظورهم حول نشأته، وسنورد فيما يلى أهم التصورات التى وردت حول هذا الموضوع.

قام بول أوتليه P.OTLET، بتطبيق نظرية المراحل التاريخية للعلوم، لتفسير نشأة الببليولوجى، وربطها إى حد كبير بتاريخ الكتاب، ويرى أوتليهOTLET أنه بإمكاننا تفسير هذه النشأة على ضوء أربعة مراحل متمايزة[٧]، وإن كانت متداخلة فيما بينها، ويمكن تلخيص تلك المراحل الأربعة فيما يلى:

أ ـ مرحلة انتاج الكتاب (ويمكن التوسع فى هذا المفهوم ليشتمل، إنتاج الأنواع المختلفة للوثائق المكتوبة أو المطبوعة).

ب ـ مرحلة إنشاء المؤسسات المعنية بتنظيم الإنتاج الفكرى المكتوب (المكتبات، مراكز التوثيق... الخ.).

جـ ـ مرحلة وضع الإسس الببليوجرافية واستخدامها، لتقنين الكتابات، والتعرف على الإنتاج الفكرى المكتوب.

د ـ مرحلة نشأة الببليولوجى كحتمية منطقية، للمراحل السابقة، بغرض وضع الأسس النظرية والعلمية لتلك الممارسات التطبيقية والمهنية.

أما روبير استيفال R. ESTIVALS، وهو أحد العلماء الفرنسيين البارزين فى مجال الببليولوجى، وهو ينتمى إلى المدرسة الفكرية لبول أوتليه P. OT-LET، فقد رأى أن الأربعة مراحل التاريخية التى نادى بها سلفة، تُعد أكثر بقليل مما يجب لتقسيم الفترة التى نشأ فيها هذا العلم، وأشار بأننا نستطيع من خلال تحديد ثلاث مراحل تتسم كل منها بالشمول والتغطية الزمنية لحقب تاريخية أكبر، كافية لتحديد المراحل التاريخية وتفسير نشأة الببليولوجى[٨].

ويحدد استيفال ESTVALS رؤيته بمقدمات منطقية، يبدؤها بفرضية تشير إلى أن نشأة الببليولوجى، استندت فى المقام الأول على نشأة الكتابة وتطورها، وهو يفرق فى هذا الصدد ما بين المراحل التطورية المختلفة للكتابة، وينادى بعدم الأخذ بالفترة التى عرف فيها إنسان المجتمعات البدائية الأولى مبادئ التعبير عن الذات، عن طريق الاعتماد على وسائط اتصالية غير ناضجة والتى اعتمدت فيها البشرية فى الاتصال على الرسومات والنقوش والرموز البدائية، التى لم تبلغ مرحلة النضج اللغوى الكتابى الكافى، لتعد لغة مكتوبة.

وانطلاقاً من هذه الرؤية، قام استيفال ESTI-VALS، بتصنيف المراحل الثلاثة التى نادى بها، حيث أطلق على المرحلتين الأوليتين «المراحل التقنية»، أما المرحلة الأخيرة فقد وصفها بأنها «المرحلة العلمية».

ويحدد استيفال ESTIVALS فى هذا التقسيم المرحلى الثلاثى، التسلسل المنطقى العلمى والكلاسيكى لنشأة العلم. ويترجم استيفال ESTI-VALS، هذه المراحل من خلال رؤيته التنظيرية، ليرى فى كل منها مرحلة معرفية، تقود بطريقة تلقائية إلى ما بعدها، بحيث تتداخل هذه المراحل فيما بينها بطريقة منطقية. وقد تمثلت رؤيته للثلاثة مراحل فيما يلى:

أ ـ مرحلة تقنية أولى: مرحلة اكتشاف الظاهرة:

اكتشاف تقنيات الكتابة وإنتاج المعلومات المكتوبة عن طريق هذه التقنيات.

ب ـ مرحلة تقنية ثانية: مرحلة وصف الظاهرة، وتحليلها، والتعرف على مفرداتها بغرض السيطرة عليها والتحكم فيها والاستفادة منها: مرحلة وضع الأسس الببليوجرافية وعمل الببليوجرافيات واستخدامها للسيطرة على الإنتاج الفكرى المكتوب.

جـ ـ المرحلة العلمية: مرحلة وضع الأسس العلمية والمنطقية والتفسيرية والتنظيرية للظاهرة تهيئة لتحويلها إلى علم يستفاد منه: نشأة الببليولوجى.

وبالبرغم من وجود بعض الاختلافات بين المنظور الذى وضعه بول أوتليه P. OTLET فى منتصف العقد الثالث من هذا القرن، ومنظور روبير استيفال R. ESTIVALS، الذى نادى به فى العقد التاسع من القرن نفسه، فيما يخص عدد المراحل المنطقية التى تفسر على ضوئها نشأة الببليولوجى، إلا أن المنظورين يتفقان فى جوهرهما، وفروضهما الأساسية، حيث يتفق العالمان، على أن نشأة الببليولوجى، ترتبط بشكل أساسى ومحتم، بتاريخ الكتابة والكتاب من ناحية، وبالمعطيات المنطقية التى تحيط بنظرية العلوم، والمفاهيم المتعارف عليها فى تفسير نشأتها، من ناحية أخرى.

وقد رأيت أن أقوم، باستعراض سريع للمراحل الرئيسية الثلاثة، التى تضمنها منظور استيفال ES-TIVALS، حيث أراه أقرب المنظورين إلى المفهوم المعاصر لتفسير نشأة هذا العلم، وذلك بغية توضيح المفاهيم الأساسية التى وردت بتلك المراحل، والتأكيد على منطقية تسلسلها وتفسيرها لنشأة الببليولوجى.

٣/١ـ مرحلة تقنيات الكتابة والإنتاج المكتوب:

تمثل هذه المرحلة، فترة ظهور الكتابة، التى جاءت لتلبية الحاجات الاجتماعية الجديدة، للمجتمعات التى تطورت من المرحلة البدائية إلى مرحلة بداية النضج الاجتماعى، وكان من الضرورى أن تبدأ فى هذا المجتمعات عملية خلق الأفكار وتركيزها، وتقنيتها وتداولها، ليس فقط لخدمة الأهداف الدينية والسياسية والاقتصادية... الخ. لتلك المجتمعات، بل ـ أيضاً ـ لإتاحة هذه المعارف للأجيال اللاحقة. وكان من المحتم اكتشاف الوسيلة لتحقيق هذه الأهداف، وتبلورت هذه الوسيلة وتجسدت فى اكتشاف «تقنيات الكتابة»، إلا أن هذا الأمر لم يكن بالبساطة التى يبدو بها. فقد كانت هنالك العديد من العقابيل الفكرية والإبداعية، بجانب العقبات التقنية والعملية، التى تقف حائلاً دون هذا الإنجاز. فقد كان الأمر يحتاج من العاملين عليه أن يتميزوا بالوعى الكامل والإدراك الحسى المرهف، والرؤية الواضحة للأبعاد النفسية للغة المكتوبة، حتى يتمكنوا من التغلب على صعوبات تجسيد الأخيلة، والتصورات، والأوهام الفكرية، وبلورة القيم المطلقة، ونوازع النفس البشرية الغير ملموسة، والأمال، والطموحات وغيرها... من المفاهيم المجردة، ووضع كل هذه النماذج والأفكار التجريدية فى قالب لغوى سليم، يعبر بدقة عن كل جزئيات وتفاصيل الحياة البشرية الحسية والمادية المغرقة فى التعقيد، فى إطار مفردات لغة مكتوبة، ومقروءة ومفهومة وقابله للتداول، ومتضمنة لمعايير الاتصال الاجتماعى والثقافى والعلمى، رفيع المستوى.

لذا فإن «الكتابة» التى نتحدث عنها فى إطار تناولنا لقضية نشأة الببليولوجى، لم تكن وليدة عصر واحد، أو حتى حضارة واحدة منفردة، بل كانت نتيجة للممارسات والخبرات والمعارف التراكمية للعديد من الحضارات، وقد أخذت صوراً متعددة

قبل أن تتشكل بصورتها النهائية المتعارف عليها فى عصرنا الحديث. وقد مرت بمراحل تجريبية شتى، طبقت فيها أنواع الكتابات التصويرية فى المجتمعات البدائية الأولى، والكتابات الرمزية للحضارات القديمة كالفرعونية، والصينية والسومرية القديمة «المسمارية»، ثم بدأ التطور التدريجى للغات والكتابات الصوتية فى الحضارات الفينيقية واليونانية، والتى أسفرت فى نهاية المطاف عن ظهور الأبجديات التى تعد أساس اللغة الصوتية الحديثة، وبتعبير آخر، التقنية الكتابية التى هى منشأ الكتابات الحديثة المتعارف عليها الآن، والتى استطاع الإنسان أن يسجل عن طريقها، إبداعاته الفكرية ويضعها فى شكل مكتوب، وهو الأمر الذى أدى إلى ظهور الوثيقة المكتوبة بشتى صنوفها وضروبها كما نعرفها ـ الآن ـ فى مجال الببليولوجى أو علم الاتصال المكتوب.

٢/٣ـ وصف وتصنيف الكتابة أو مرحلة الببليوجرافيات:

تعد هذه المرحلة، الحلقة الوسيطة فى سلسلة المنظور المنطقى لنشأة الببليولوجى، وتأخذ أهميتها من كونها، همزة الوصل ما بين الرؤية غير المحددة والقاصرة ـ إلى حد ما ـ لأنشطة تقنية غير مصنفة فى إطار علمى محدد، وبين تشكل المفاهيم التأسيسية وتبلورها حول رؤية علمية تستند بقوة على قواعد منهجية تنظيرية، ترمى إلى خلق وتطوير «علم» (وأقصد هنا الببليولوجى)، ووضعه فى مكانته الصحيحة بين العلوم الإنسانية الأخرى، وبالتحديد كأحد العلوم المتفرعة من علوم المعلومات والاتصالات.

وتتصف هذه المرحلة ـ فى رأى التواضع ـ بنوعين من الأنشطة، يوصف أولهما «بالنشاط التقنى العملى أو التطبيقى»، أما ثانيهما فيقع فى إطار «الأنشطة الفكرية والرؤية الفلسفية». ونعنى بأولهما قيام المؤسسات الاجتماعية المعنية بتقديم خدمات المعلومات، وتمثل شبكة المرافق التى تحتضن أنشطة التنظيم والحفاظ على الإنتاج الفكرى المكتوب، من مكتبات ومراكز توثيق ومعلومات، ودور محفوظات... الخ. أما ثانيهما، فنعنى به الفكر الفلسفى، والمنظور الاجتماعى الذى أدى إلى ظهور الأعمال الببليوجرافية ودعم مسيرتها. وأننى على قناعة بأن البذرة الأولى التى تكونت لهذا العلم، خلال مرحلة «تقنيات الكتابة والإنتاج الفكرى المكتوب»، وجدت فى المرحلة الوسيطة أرضاً خصبة، تشكلت تربتها من نماذج ثرى للتطبيقات العملية والمفاهيم الفلسفية، أمدت وغذت تلك البذرة بمقومات الحياة والنماء، لتنبت وتزدهر، لتصبح مع مرور الزمن شجيرة علمية تسعى جاهدة لأخذ مكانها فى حديقة العلم. وأننى لأرى أن هذا التلاحم بين الفلسفة والتطبيق، لم ينشأ بمحض الصدفة، بل مكان استجابة تلقائية وطبيعية لمعطيات البيئة الاجتماعية المحيطة بهذه الأنشطة، والتسلسل المنطقى للأحداث، وأعنى به نشأة تقنيات الكتابة وتطورها، الذى أدى إلى الزيادة المطردة والسريعة للإنتاج الفكرى المكتوب، مما حتم ضرورة قيام مؤسسات اجتماعية للحفاظ على هذا الإنتاج الهام المتسم بالنمو والاستمرارية كماً ونوعاً، فى ظل مناخ فكرى مواتى ومحفز لأحداث تطورات جذرية فى مجال المعرفة المكتوبة والمسجلة، وكذا، كان للتوافر الكبير فى الأعداد المنتجة من الكتب، وتزايد نسبة المتعلمين، الذين أدى إلى ظهور طبقات جديدة فى المجتمعات تتميز بطموحات كبيرة، وتسعى إلى إشباع حاجاتها الثقافية والعلمية، وتطور خدمات المكتبات العامة والتوسع فيها، وبداية عصر النهضة، وحلول عصر الإصلاح والمعرفة،

وتعاظم الاهتمام بالحركة الإنسانية، والتحرر الفكرى، وظهور المدارس الفلسفية والعلمية كنتاج طبيعى لظهور الفلاسفة والعلماء، وبداية التقدم العلمى ـ كان لهذا ـ الأثر الكبير فى المناداة بتنظيم هذه المعارف وتصنيفها وتقنينها بغية الحفاظ عليها والاستفادة منها.

ويمكننا القول، بأن استحداث الببليوجرافيات جاء كرد فعل إيجابى. لمقابلة هذه الاحتياجات، وتحقيق هذه الأهداف. وإن هدفت الأعمال الببليوجرافية فى بداية نشأتها ـ كنشاط تقنى ـ إلى حصر الإنتاج الفكرى المكتوب وتسجيلة فى قوائم وصفية معتمدة، إلا أن هذا الهدف طرأت عليه تطورات جذرية، أضافت الكثير إلى مفاهيمه ليشمل أغراض أخرى أوسع وأرحب من هذا المفهوم الضيق، وبرزت مفاهيم تسعى إلى تأصيل المعارف ونشرها، كأهداف رئيسية، وبذلك عبرت الببليوجرافيات «دائرة النشاط التقنى» لتأخذ مكانها على الخريطة العلمية، وقد عبر عن ذلك ويندهام هولم E. WYNDHAM HULME ، فى بحثه «الببليوجرافيا الإحصائية» عندما صرح قائلاً:

Bibliography is the science of the organi- ››
‹‹zation of recorded Knowledge

[الببليوجرافيا، هى علم تنظيم المعارف المسجلة][٩].

اعتمد الاعتراف بالببليوجرافيا «كعلم» على جهود العديد من الباحثين، حيث اشتملت كتاباتهم على توضيح وشرح البعد الفلسفى والاجتماعى للببليوجرافيات، والتعريف بالأنظمة الببليوجرافية، وتحديد أهداف البحوث والدراسات التى تجرى فى هذا المجال، وابتكار مناهج البحث الوصفية والتحليلية للأعمال الببليوجرافية، وأدت هذه الجهود إلى بلورة وتجسيد الرؤية التنظيرية والعلمية للببليوجرافيات، وهو الأمر الذى مهد الطريق لنشأة الببليولوجى.

٣/٣ ـ نشأة الببليولوجى:

تفيدنا الدراسات التى تبحث فى تاريخ العلوم، أن نشأة أى علم تستند على ملاحظة الظواهر ودراستها، من خلال الرؤية التسجيلية والتصنيفية لها. أى عن طريق الوصف التسجيلى للظواهر وتصنيف مكوناتها، بغرض تحليل واقعها المعقد للوصول إلى مرحلة فهمها واستيعابها، ومن ثم السيطرة عليها والتحكم فيها وتقنين استخدامها لنصل بها إلى مرحلة العلم. ولكن يجىء الوقت الذى يتطلع فيه الباحثون والعلماء إلى تحقيق أهداف أكثر شمولية وعمقاً فى فهم الظواهر، فإذ كان الوصف التسجيلى والتحليل والتصنيف للظواهر، ويقود الباحثين إلى مستوى معرفى معين، فلا يعنى هذا نهاية المطاف بالنسبة للعلماء والمنظرين، وتبقى هناك مستويات معرفية أخرى يتطلعون للوصول إليها، ويُعد المستوى المعرفى التفسيرى للظواهر، الذى يتعدى برؤيته مرحلة التسجيل والتحليل والتصنيف ، أحد هذه المستويات. وهذا الرؤية العلمية بذاتها، وهى التى قادت إلى نشأة الببليولوجى.

فالببليوجرافيا كعلم، يقوم بتسجيل وتحليل وتصنيف ظاهرة تداول الإنتاج الفكرى المكتوب، اكتسب صفة «العلومية» من هذا المفاهيم، إلا أن طموحات علماء المجال ومنظرية، تجاوزت فى رؤيتها ذلك الإطار العلومى ـ المحدود إلى حد ما ـ ودفعتهم للبحث عن صيغ ومفاهيم جديدة ومناهج مستحدثة، تعينهم ـ ليس فقط ـ على فهم واقع الظاهرة ونتائجها، بل تمكنهم من تفسيرها علمياً. وكان الهدف من ذلك، ليس مجرد السيطرة

والتحكم فى استخدام الظاهرة، بل تعدى ذلك، إلى القدرة على التحكم فى مفرداتها ومكوناتها، وتغير طبيعتها ـ جزئياً أو كلياً ـ للتوصل إلى خلق وابتكار خواص جديدة تماماً تؤدى إلى نشأة ظواهر تختلف فى طبيعتها وخواصها، وبالتالى فى سبل استخدامها ونتائجها عن الظاهرة الأصلية. ولتحقيق تطلعات منظرو وعلماء المجال فى خلق علم يمكنهم من بلورة هذه الطموحات، وكانت نشأة هذا العلم «الببليولوجى»، الذى استند على المنظور التفسيرى لظاهرة تداول المعلومات المكتوبة فى المجتمع، على ضوء العلاقات المتداخلة بين النظم الاتصالية المكتوبة، والنظم الاجتماعية للمجتمع المنتج والمستفيد، والفكر الفلسفى المتحكم فى مفردات ومكونات هذه الظاهرة، بغرض ابتكار وخلق ظواهر جديدة تزيد من فاعلية مستويات التطبيق وترتقى بها إلى آفاق ارحب وأوسع.

٤ ـ التأريخ للعلم:

عند دراسة التطورات التاريخية للببليولوجى، يجد الباحث نفسه فى حاجة إلى التعامل مع عدة مفاهيم، تحتم عليه معالجة هذه القضية عن طريق مداخل ومناهج متعددة، ليس أهمها الدراسة التطورية التعاقبية Diachronic Study، بل إن تلك الرؤية الزمنية تعد إحدى المناهج المتساوية الأهمية مع غيرها من الرؤى التى يتحتم على الباحث استخدامها ـ حيث توصلت من خلال أبحاثى حول هذا الموضوع، أن تاريخ الببليولوجى يتداخل بصورة معقدة مع المسارات التطورية التاريخية لأنظمة وعلوم أخرى، مما يجعل من الصعب ـ بل ومن المستحيل فى بعض الأحيان محاولة التعرض لتاريخ الببليولوجى بدون الخوض فى العلاقات التاريخية والموضوعية المتبادلة بين هذه الأنظمة العلمية، مما يجعل مهمة الباحث صعبة للغاية عند القيام بالتفرقة والفصل ما بين ما يخص تلك الأنظمة والعلوم من مفاهيم، وتلك المتعلقة بالببليولوجى، وأن الأمر يحتاج إلى كثير من الحرص والتأنى، وتوخى الدقة عند عملية الفصل ما بين تلك المفاهيم، حتى لا يفقد الخيط الرئيسى للدراسة، فى هذا الخضم المتلاطم والمتلاحم من المفاهيم المتشابهة والمتوازية تاريخياً وموضوعياً. لذا فقد رأيت استخدام منهج الدراسات التزامنية Syn-chronic Studies، جنباً إلى جنب مع منهج الدراسات التطورية التعاقبية، بطريقة تبادلية[١٠]، بغرض تحقيق أقصى فائدة ممكنة من تحليل البيانات، والوصول إلى الهدف المنشود من هذه الدراسة.

انطلاقاً من هذه الرؤية المنهجية، فقد اتبعت منهج دراسة تاريخ الببليولوجى، باتخاذ عدة محاور يرتبط كل منها «بمفهوم ما» ارتبط به الببليولوجى كمصطلح أو كعلم، فى مرحلة ما «من مراحل تطوره التاريخى، شريطة أن يكون هذا المفهوم ـ أو مجموعة المفاهيم ـ قد أثر فى مسار هذا العلم وتطوره، وذلك فى إطار مراحل تاريخية زمنية متعاقبة، تبدأ وتنتهى بأحداث منطقية أو منعطفات تاريخية مؤثرة. وقد حددت المحور الأول من خلال أقدم المفاهيم والعلاقات التى ارتبطت به (أى الببليولوجى) منذ ظهوره للمرة الأول فى كتابات الباحثين، وأعنى بذلك، علاقة الببليولوجى بالببليوجرافيا كمصطلح، وتقنيات، وعلم.

١/٤ ـ المرحلة الأولى: الإطلالة وبدء التكوين: بداية القرن التاسع عشر

١/١/٤ ـ المحور الأول: الببليولوجى / الببليوجرافيا / تقنيات المكتبات

فى رأيى ـ وقد يرى البعض غير ذلك ـ أن الببليولوجى بدأ بداية متواضعة، حيث لم تسبقه أى

مظاهرة علمية، تبشر به وتمهد لظهوره، فقد أهَّل على المجال العلمى عام ١٨٠٢م من خلال عمل جابريل بينو Gabriel PEIGNOT، الذى لم يلق الاستجابة الكافية من الباحثين عند صدوره. وقد توقفت كثيراً أمام هذا العمل، وتساءلت هل أتخذه مرتكزاً ونقطة انطلاق للتأريخ للببليولوجى، أم أبحث لنفسى عن منطلق آخر؟ وبعد إمعان فكر، وجدت فى هذا العمل بداية منطقية ومدخلاً طبيعياً، ليس فقط لأنه أول من قدَّم لهذا العلم، بل لأنه أول من أشار إلى علاقة الفاهيم الببليوجرافية بالببليولوجى، وعليه فإن تلك البداية تجسد تماماً جوهر المنهجية التى اتبعها، والتى يمتزج فيها التسلسل التاريخى مع المفاهيم العلمية التى ارتبطت بالببليولوجى، ولذل فهى تمثل المدخل «التاريخى/ المفهومى» أو «الزمنى / الببليوجرافى».

قام بينو PEIGNOT، فى هذا العمل، بالتعامل مع الببليوجى على أنه النظرية البنائية التاريخية للكتاب، واستخدام مصطلحات تخصصية لتعزيز المفاهيم المحيطة بمصطلح الببليولوجى، فقد استخدم ـ على سبيل المثال ـ مصطلح Bibliopolie[١١]، ليعبر عن ذلك الجزء من الببليولوجى المتعلق بتوزيع الكتب، أما مكتبات بيع الكتب فكان يشير إليها بمصطلح Librairie، وبالرغم من العلاقة المتداخلة بين مفهوم المصطلحين، حيث أن كلاهما يختص بتوزيع الكتب، فقد عمل بينو PIEGNOT على تأكيد الاختلافات فيما بينهما فى كتاباته، وإن كان مُقلاً فى استخدامه لمصطلحLIBRAIRIE[١٢]. وأعتقد أن بينو PIEGNOT، كان يرمى من ذلك إلى التفرقة ما بين التوزيع العلمى والأكاديمى للكتاب عن طريق شبكة مكتبات الإطلاع والإعارة Bibliothéques، والتوزيع التجارى للكتب الذى تقوم به قنوات التوزيع التجارية لبيع الكتب -Librair ies. وكان ذلك فى رأى أول المحاولات لتوضيح مفاهيم الأنشطة المتعلقة بالببليولوجى. وبناء على كتابات جابريل بينو G. PIEGNOT، فإن الببليولوجى يعد الشق التنظيرى للببليوجرافيا، أو ما يمكن أن يطلق عليه «نظرية الببليوجرافيا»، ويمثل لديه نوع من المنظور الشمولى الأقرب إلى النظرة الفلسفية التى تسبق القيام بالأعمال الببليوجرافية.

ويبدو أن تلك الرؤية للببليولوجى، سادت لفترة زمنية ليست بالقصيرة، حيث نجد بيير لاروس Pierre LAROUSSE، عام ١٨٦٧م يقوم بتعريف الببليولوجى، بأنه ‹‹الجزء النظرى للببليوجرافيا، التى تعالج القواعد والمصطلحات لهذا العلم››(١٣)، وهى تلك الرؤية الببليولوجية بذاتها، التى اكتشفها ل. ن. مالسليه L. N. MALCLES، فى أعمال تشارلز مورتيت Charles MORTET، عام ١٨٦٩م، الذى كان يرى فى الببليولوجى المقابل النظرى للببليوجرافيات التى تستخدم أدوات المعلومات المتعلقة بتحليل ومعالجة خصائص الكتاب والبحث العلمى المكتوب، والقواعد التقنيات فى مجال المكتبات.

إن كانت تلك المفاهيم تمثل رؤية المدرسة الفكرية الفرانكفون (البلاد الناطقة باللغة الفرنسية)، فإننا نجد رولاند هود Roland HOUDE، يعبر عن وجهة نظر المدرسة الفكرية الأنجلوفون (البلاد الناطقة باللغة الإنجليزية) لنفس الفترة الزمنية، حيث صرح فى عمل له قائلاً ‹‹بالرغم من قيام ويليم ألفرد William ALFRED، المكتبى وأخصائى الفهرسة بالمتحف البريطانى فى الفترة من ١٨٨٣ إلى ١٩٢٤م، بالاعتراض على استخدام مصطلح ببليولوجى فى الطبعة الشاملة للموسوعة البريطانية Encyclopedia Britannica، الطبعة ١١ لسنة ١٩١٠، مجلد ٣، ص ٩٠٨ ـ ٩١١، فى مقال

له بعنوان «البليوجرافيا والببليولوجى Bibliography and Bibliology، إلا أن ذلك لم يمنع استمرارية استخدام هذا المصطلح أو المفاهيم المتعلقة به، وكذلك لم يَعُقْ تطور هذا العلم فى البيئة العلمية الأنجلو فونيه»[١٤].

ويلاحظ من الطرح السابق، أن الببليولوجى، ارتبط فى بدايته، ارتباطاً وثيقاً بالببليوجرافيا، وتقنيات المكتبات، واختلطت مفاهيمهما معاً، بالرغم من محاولات الكثير من العلماء والباحثين من التفرقة والفصل بينهما، إلا أن هذا الفصل لم يكن كاملاً، وكان هناك ـ دائما ـ مفهوماً سائداً بأن الببليولوجى والببليوجرافيا، وجهان لعملة واحدة، أحدهما نظرى وعلوى (الببليولوجى)، والآخر تطبيقى وتقنى (الببليوجرافيا).

ومع الوقت بدأ الفصل التدريجى ما بين مفاهيم النظامين الببليولوجى، والببليوجرافى، وإن تطلب الفصل الكامل فترة زمنية طويلة ـ نسبياً ـ منذ بداية القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين، وبالتحديد فى الثلث الأول من هذا القرن، جاء الاعتراف الكامل من الأوساط العلمية الأوربية بالببليولوجى كعلم للكتاب، وتبلور هذا الاعتراف فى المدرسة الفرانكفون، من خلال المناقشات والتوصيات الناتجة عن الندوة العالمية التى نظمتها الجمعية التاريخية «مركز التلخيص التاريخى Le Centre De Synthese Historic que» عام ١٩٣٤م، وتم خلال هذا التجمع العلمى، تعريف البيليوجرافيا «كقائمة تصف وتصنف الأعمال المطبوعة» أما الببليولوجى فقد عرف «بعلم الكتاب»[١٥]. وتزامن هذا الحدث، مع نشر أوتليه OTLET، لعمله الشهير «معالجة مجموعات الوثائق: الكتاب عن الكتاب: النظرية والتطبيق»[١٦]. والذى قام فيه الببليوجرافى البلجيكى الشهير أوتليه OTLET، بإرساء القواعد الأساسية للببليولوجى «كعلم الكتاب» وتوسع فى شرح مفاهيم هذا العلم ومناهجه البحثية (الببليومترى Biliometric)[١٧]، ووضع الحدود الفاصلة ما بين الببليوجرافيا والببليولوجى، وإن كان تعرض فى كتبه إلى قضية أخرى حول علاقة الببليولوجى بعلم الوثائق، Documentologie، مما أدى إلى فتح باباً جديداً للنقاش، حول هذا العلاقة، مما أدى بدوره إلى إلقاء المزيد من التساؤلات حول ذلك العلم، ومدى تأثير هذه العلاقة على مساره وتطوره. (ستتم مناقشة هذا العمل بطريقة أكثر تفصيلاً فى المرحلة اللاحقة من البحث).

أما فى المدرسة الفكرية الأنجلو فون، فقد استمر الاتجاه الذى ينادى بفصل المفاهيم، بين النظامين الببليوجرافى والببليولوجى، وبناء على ما أوردته مالكليه MALCLES فى عملها المعنون «الببليوجرافيا La Bibliographie»[١٨]، فإن موقف المدرسة الإنجليزية من هذه القضية وضحت معالمه، حينما بدأ وضع الببليوجرافيات فى إطار أنظمة وتقنيات قوائم الكتب، وبدأ يشار إلى الببليولوجى فى الإنتاج الفكرى للمجال، كعلم الكتاب، ولذا نجد أن المصادر اللغوية المعتمدة باللغة الانجليزية ـ كصدى لهذه الاعتراف ـ بدأت فى تعريف الببليولوجى، كعلم الكتاب، وقد ورد فى قاموس اكسفورد للغة الانجليزية « OXFORD ENGLISH DICTIONNARY » لعام ١٩٣٣م، تعريف للببليولوجى «كعلم الكتاب»[١٩].

ولكن لايمكن أن يفسر تطور الببليولوجى خلال هذه الفترة الزمنية، على ضوء علاقته بالمفاهيم الببليوجرافية والتقنيات المكتبية فقط، بل هناك معطيات علمية واجتماعية أخرى، أثرت على مساره خلال تلك الفترة، وكانت علاقة تلك المعطيات بتشكيل مفهوم الببليولوجى على نفس

القدر من الأهمية التى تميزت بها المفاهيم الببليوجرافية، ويمكن القول بأن هذه المفاهيم كانت متعلقة ـ إلى حد كبير ـ بأبعاد علمية فلسفية، واجتماعية وسياسية، تميزت بها المجتمعات الأوربية، خلال القرن التاسع عشر اميلادى. ولذا فإن المحور الثانى سيتناول علاقة الببليولوجى بهذه المفاهيم.

٤/ ١/ ٢ ـ المحور الثانى: الببليولوجى / الرؤية الفلسفية / البُعد السياسى

كان المناخ الفكرى فى أوربا فى القرن التاسع عشر، مواتياً للخلق والإبداع العلمى والأفكار العقلانية، والتنظيم الشامل للمعرفة البشرية، وهو الأمر الذى أفرز بيئة مواتية لقيام الفلسفات التنظيرية الجديدة فى جميع المجالات المعرفية، وانعكس هذا على البحوث فى مجال الببليولوجى فى تلك الفترة، ومن ثم برزت محاولات الباحثين لخلق ارتباط مابين الببليولوجى والمنظور النقدى الحديث للعلوم، أو ما يسمى بمبحث العلوم Epistemologie، أو نظرية المعرفة Epistemology مروراً بمرحلة المفاهيم الببليوجرافية. وفى هذا الصدد، نجد أن الباحثين طرحوا من خلال دراساتهم، أفكاراً ترمى إلى إكساب الببليوجرافيات صفة «السجل والتصنيف الشامل والعلمى للإنتاج الفكرى البشرى»، أما الكتاب، فيجسد من وجهة النظر الفلسفية العلمية «الذاكرة البشرية المدونة»، وقد حاولوا ربط تلك المفاهيم «بنظرية المعرفة»، ولذا فقد سعوا إلى إظهار الببليولوجى كمنظور يجسد تلك المفاهيم الفلسفية، التى تربط ما بين الرؤية الموسوعية للعلوم وتطبيقاتها فى المجتمع[٢٠]. وقد عبر عن ذلك جان ـ بير نومير Jean-Pierre NOMUR ، المكتبى بجامعة لوفان، بفرنسا، عام ١٨٣٩م، فى عمل له بعنوان مشروع لنظام جديد للمعرفة البشرية: « Projet d'un Nou-veau Systeme Des Cannaissances Humaines»، حيث فرق فى جدولة موضوعية بين نوعين من الأنشطة:

أ ـ الأول يتعلق بالأعمال الأساسية (المصادر الأولية)، والأعمال الموسعية (الشاملة)، والكتابة المنطقية Logographic. وهو ما أطلق عليه «المنظور الفلسفى للببليولوجى».

ب ـ الثانى يتعلق بتاريخ المكتبات، وتقنيات الطباعة، ومراكز توزيع الكتب بشقيها الأكاديمى والتجارى، والببليوجرافيات وتقينات معالجة المعلومات. وهو ما أسماه «بالمنظور المهنى التطبيقى». وهو التصنيف الذى مازال يتبع إلى الآن فى تقسيم الأنشطة المحيطة بالببليولوجى، مع بعض التعديلات التى تتناسب ومعطيات العصر. ولذا نجد أن هذا الرأى، هو بنفسه الذى تبناه ونادى ج. فارى G. VARET، فى بداية النصف الثانى من القرن العشرين[٢١]. ويتتبع خطاه ومسيرته علماء معاصرين أمثال: روبير سكاربيه R. ESCARPIT جون ـ ماريا J. MEYRIA، وربير ستيفال R. ESTI-VALS وغيرهم.

اقترنت الثورة الفكرية والرؤى الفلسفية الجديدة فى أوروبا فى القرن التاسع عشر، بأخرى سياسية كان لها عميق الأثر فى إعادة تشكيل الفكر السياسى بالمجتمعات الأوروبية، وبعد تأثير هاتين الثورتين المتزامنتين، تأثيراً تبادلياً وتفاعلياً على بعضهما البعض، مما يجعل من الصعب معرفة أيهما كان له قصب السبق فى الظهور والتأثير. والثورة الفرنسية خير مثال على ذلك فلازال الباحثون يقلبون الرأى فيما إذا كان لإنتشار الآراء الفلسفية والأفكار التحررية، هو الذى أدى إلى اندلاع الثورة، أم أن الثورة هى السبب فى تولد الأفكار والفاهيم الفلسفية والتحريرية الجديدة. وأى كان الأمر، فإن

تفجر الثورة الفرنسية عام ١٨٤٨م، ورفعها لشعار «الحرية، الأخاء، المساواة»، كان له الفضل فى إفراز الكثير من الأفكار التحررية وتصديرها إلى المجتمعات الأوروبية المجاورة، مما أدى إلى تغير المناخ السياسى بالمنطقة وخاصة وسط أوروبا، ودول البلقان، وتبع هذا التطور، تحرك سياسى لشعوب هذه المنطقة للتحرر من نير الاستعمار والهيمنة السياسية النمساوية والبروسية والروسية، وقد تنامت هذه الحركات السياسية وتعاظم دورها فى القرن التاسع عشر. وبالرغم من أن الاستقلال يعد ـ حتماً ـ حركة سياسية عسكرية، إلا أن الحصول عليه يتطلب ـ أولا ـ أن تثبت الأمم المُستعمرة عن طريق الأدلة والبراهين على وجودها الحضارى التليد والمعاصر، وبالتالى كان يجب ـ فى هذا الصدد ـ إثبات حيازتها للغة الحضارية (رموز الثقافة)، والأدب (الإنتاج الفكرى)، والتاريخ العريق (الحضارة المدونة)، وأن نؤكد بالوقائع الملموسة أن السياسة الثقافية الجائرة للمستعمر، قد طبقت خلال فترة الاستعمار السياسى، بغرض طمس رموز الثقافة الوطنية، ومسخها، بل ودمجها بثقافة المستعمر، لاجتثاث التاريخ الوطنى للبلاد من جذوره، واستئصال الماضى الثقافى للأمة، لتمحو الهوية القومية.

وتزعم هذه الانتفاضات الثقافية فى مجتمعات القرن التاسع عشر، رجال الدين والطبقات البرجوازية الوطنية المثقفة. وبدأ فى تدعيم الحركات الثقافية الأصولية، أو التأصيل الثقافى الوطنى، بإنشاء المؤسسات الثقافية الوطنية، والمتاحف الوطنية، ودور الوثائق والمكتبات الوطنية... الخ. وبدأ مثقفو وصفوة المجتمع من المتعلمين والعلماء والباحثين، يجوبون أنحاء البلاد بل وأرجاء المعمورة، بحثا عن الموروثات الثقافية الوطنية المكتوبة والمدونة، والتى نُهبت وسُرقت أبان فترة الاستعمار، للاستعانة بها، كأدلة دامغة على وجود حضارات وثقافات أصيلة، وتاريخ عريق لبلادهم يمتد عبر الأزمنة والعصور، وحتى ما قبل تاريخ وحضارات الدول التى استعمرتهم. وقد جمعوا من هذا الكثير وانكبوا على دراسته وتحليله. وهنا يبرز دور الببليولوجى كوسيط للثورة السياسية الثقافية والفكرية المناهضة للاستعمار السياسى، ويمكن وصف هذا هذا التوجه، بالعمل السياسى من خلال الأنشطة الببليولوجية[٢٢]. واستمر هذا الاتجاه منذ هذه الفترة وحتى الحرب العالمية الأولى ـ بدرجات متفاوتة ـ فى المجتمعات الأوروبية، وخاصة فى شرق أوروبا، فى البلاد التشيكية، والسولفاكية، ورومانيا، والمجر، وبلغاريا، وبولندا، وحتى فنلندا. وتعاظم هذه الاتجاه قبيل الحرب العالمية الثانية، ليشمل بلدان العالم الثالث، وتزامن مع حركات التحرر والتطلع إلى الاستقلال فى هذه البلدان. وانعكس هذا على كثير من الأعمال والبحوث الثقافية والأكاديمية والعلمية للدارسين والباحثين والعلماء من العالم الثالث، حيث تناولوا وعالجوا الموضوعات التاريخية والثقافية والتراثية والعلمية فى أعمالهم المنشورة وغير المنشورة، ومن خلال المؤتمرات والندوات المتخصصة[٢٣].

ونستخلص من هذا السرد التحليلى، أن الببليولوجى كجوهر وتجسيد لمفاهيم الاتصال المكتوب فى المجتمع، كان له دور فى دفع حركات الاستقلال والتحرر، وكما نرى فإن التفكر فى الاستقلال السياسى، يبدأ ويتزامن مع البحث عن الأصول التاريخية والموروثات الثقافية، التى عادة ما تكون على شكل وثائق مكتوبة بأشكالها القديمة والحديثة، وهى تمثل الوعاء المادى للاتصال المكتوب. وتمثل هذه الأبحاث الببليولوجية الأساس المعنوى والفكرى، بل الوقود المادى والحسى الذى

يصبه الزعماء والمفكرون الوطنيون، والكوادر الوطنية المثقفة والمؤهلة، فى شرايين الأمة، لإثارة حماسها، وتنويرها بتراثها العريق وثقافتها التليدة لدفعها للثورة ضد المستعمر، وفى مرحلة لاحقة للتخلص من الآثار السياسية والثقافية والنفسية التى ترتبت على فترة الاستعمار. وبمعنى آخر، فإن الثورة السياسية ترتكز على دعائم الثورة الفكرية الثقافية، والتى يعد أحد دعاماتها الرئيسية البحث الببليولوجى.

٢/٤ - المرحلة الثانية: بداية التأصل والاستقرار العلمى: بداية القرن العشرين

٤/ ٢/ ١ - المحور الأول: المنظور النظامى للببليولوجى وعلم الوثائق لبول أوتليه P.OTLET

من الواضح أن المفهوم السياسى للببليولوجى، الذى تبلور فى نهاية القرن التاسع عشر، انعكس على المفهوم العام له، وأضاف إليه معطيات جديدة، بدأ بها مسيرته فى القرن العشرين، وكان التوجه هذه المرة يرمى إلى وضع الببليولوجى فى إطار العلم الذى يتعامل مع الوسائط الكتابية بكل أشكالها، وليس على أنه علم الكتاب فقط، وبمعنى آخر محاولة التوسع فى مفهوم الببليولوجى ليشتمل مجال الكتابة بالكامل. وهذا هو المفهوم الذى بدأت به مسيرة الببليولوجى فى القرن العشرين، وإن لم يتحقق، إلا فى النصف الثانى منه.

يعد بول أوتليه Paul OTLET، العالم الببليوجرافى البليجيكى - بحق - هو قائد ورائد هذه المسيرة، فهو الذى «أخذ على عاتقه منذ عام ١٨٨٨، الاهتمام بقضية الببليوجرافيا العالمية... وطور مع زميله أيوينسكى IWINISKI، الإحصاء الاسترجاعى العالمى للمطبوعات، وهو أول من ابتكر مصطلح الببليومترى واستخدامه بمفهومه الحديث[٢٤]... ووضع أسس التصنيف العشرى العالمى، على ضوء تصنيف ديوى العشرى الأمريكى، كما كان وراء الجهود لإنشاء المعهد الدولى للببليوجرافيا Institut International de Bibliographie، الذى تحول فيما بعد إلى المنظمة الدولية للتوثيق Federation de Documentation FID، ومؤسس متحف الكتاب فى بروكسل «La Mundaneum»[٢٥].

ولكن مجهودات بول أوتليه P.OTLET، لم تقتصر فقط على مجال الببليوجرافيا العالمية، بل امتدت لتشمل نظرية الببليولوجى، بداية بعرض لهذه القضية ما بين السنوات ١٩٠١. ١٩٠٣(٢٦). وحتى عام ١٩٣٤ - قبيل وفاته بعشر سنوات - وعندما تنشر عمله الشهير «معالجة مجموعات الوثائق: الكتاب عن الكتاب: النظرية والتطبيق»[٢٧].

وقد دون أوتليه OTLET، فى هذا العمل الضخم، الأعمال الأكاديمية والعلمية الأولى فى مجال الببليولوجى، والتى صدرت عن مختلف الأقطار الأوروبية منذ نهاية القرن التاسع عشر، ويعد عمله - المتميز - هذا، والذى اختتم به قائمة أعماله الأكاديمية الكبرى وحياته العلمية الحافلة، المرجع الرئيسى - حتى وقتنا الحالى - لكل من يود أن يتعرض لدراسة الببليولوجى، مما حدى بكثير من الباحثين إلى عرضه وتلخيصه فى العديد من أعمالهم العلمية المنشوره. وتم ذكر فضل هذا العمل على مجال الببليولوجى خلال الندوات الدولية للببليولوجى، التى عقدت فى تونس عام ١٩٨٨، والتى تقرر فيها إنشاء «الجمعية الدولية للببليولوجى L' Association International de Bibliologie»، بإصدار توصية بإعادة طبع مؤلف أوتليه، استجابة لرغبة باحثى المجال وتقديراً لأوتليه وعمله المرجعى الهام.

فى واقع الأمر، أن استرسالنا فى سرد منجزات وأعمال أوتليه OTLET، ليس الغرض منها استعراض السيرة الذاتية للعالم الشهير، ولا لتعديد أفضاله على مجال الببليولوجى ـ كما قد يتراءى للبعض ـ بل أن غرضنا من ذلك، هو إظهار صورة واضحة مكتملة المعالم ـ إلى حد ما ـ لهذا العالم، الذى فجر قضية القرن العشرين فى مجال الببليولوجى، والتى دارت حولها غالبية البحوث ـ إن لم يكن كلها ـ التى تناولت هذا العلم، منذ بداية القرن العشرين وحتى ما بعد الحرب العالمية الثانية، ومن يبحث فى هذا المجال، يجد أنه من غير الممكن ـ بل من المستحيل ـ أن يتحدث عن مسار وتطور تاريخ الببليولوجى، بدون التعرض لتاريخ وكتابات أوتليه OTLET، فالببليولوجى الحديث يعنى أوتليه OTLETوالعكس صحيح.

كما أسلفنا فقد تعرض أوتليه OTLET فى عمله الذى نشره عام ١٩٣٤م، لقضيتين فى غاية الأهمية، حددتا مسار الببليولوجى فى السنوات اللاحقة.

القضية الأولى كانت تتعلق برؤية أوتليه OTLET فى المفاهيم التى طُرحت حول الببليولوجى منذ نشأته فى بداية القرن التاسع عشر، وقد قام أوتليه فى عمله، بدراسة نقدية لأعمال ج. بينو G.PEIGNOTالرائد الأول للببليولوجى، ومعاصريه، حيث أشار أن الرؤية لديهم فيما يتعلق بالكتاب والوثيقة المطبوعة كانت رؤية واضحة للغاية. وخاصة لدى بينو PEIGNOT، والتى وضحت فى كتاباته التى نشرها فى بداية القرن التاسع عشر. وعلى العكس تماماً فإن الرؤية فيما يخص الببليولوجى كانت محدودة ومختصرة، وكان أولى بأن تعالج بقدر أكبر من الأهمية، لأنها تمثل ـ بالفعل ـ القضية الأساسية ذات الأهمية القصوى لهذا المجال.

وقد قدم أوتليه OTLET فى عمله، نظريته الخاصة بالببليولوجى والتى أطلق عليهاLa Systemique Bibliologique المنظور النظامى للببليولوجى. وبدأ شرح هذا المنظور، من خلال رؤيته التنظيرية، بتطبيق «نظرية المراحل التاريخية للعلوم» لتفسير نشأة الببليولوجى (٢٨) وتعرض لمناقشة أهدافه وأسسه العامة، وحلل العوامل والمفردات التى يقوم عليها المنظور النظامى. واستعرض كل نتائجه التى حصل عليها من خلال الدراسات التى قام بها خلال فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية (وهى الفترة التى أنتج خلالها معظم كتاباته حول هذا الموضوع). وقام أوتليه بتعريف الببليولوجى على أنه:

"Une Science generale embrassant l'ensemble systematiaue classe des donnees reatives a la production, la conservation, la circulation et l'utilisation des ecrots et des documents de toute espece. Cette Science Conduitait les esprits a reflechir plus Profondement aux diverses disciplines particulieres du livre"[٢٩].

[هو ذلك العلم الشامل الذى يحيط بمجموعات البيانات المصنفة والمرتبة، المتعلقة بإنتاج وحفظ وتوزيع، واستخدام الكتابة، والوثائق المكتوبة بشتى ضروبها ويقود ـ هذا العلم ـ إلى التفكير والتأمل المتعمق فى شتى الموضوعات التى تختص بالكتاب].

ولايُعد الكتاب ـ من وجهة نظر أوتليه OTLET ـ الهدف الأوحد أو المحور المنفرد الذى يدور حوله الببليولوجى، فقد طرح فى علمه، كل الوسائط الأخرى البديلة للكتاب، والتى كانت معروفة فى ذلك الوقت، كالصور والشفافات، والأفلام... الخ. وتعرض بالشرح لهذه الوسائط

كقرين للكتاب، وكأوعية معلومات تتوازى مع الكتاب من حيث أهميتها كأوعية حاملة للمعرفة. تلك كانت القضية الأولى التى تعرض لها أوتليه OTLET فى عمله والتى أوضحت رؤيته فيما يخص التوسع فى المفاهيم المتعلقة بالببليولوجى، ليشمل كافة أنواع الوثائق المكتوبة، بجانب وضعه للأسس التنظيرية العلمية للببليولوجى، وإبرازه كعلم له أساسه النظرى، ومناهجه البحثية، وتطبيقاته العملية.

أما القضية الثانية التى أثارها أوتليه OTLET، فكانت مسألة اختلاط مفاهيم الببليولوجى بعلم الوثائق. وقد وضح هذا التداخل، حتى فى التركيب اللفظى للمصطلحات التى تستخدم للتعبير عن هذين العلمين، فالأولBibliologie والثانى -Docu mentologie، وكما هو ملاحظ فالمصطلحان مركبان ـ كما هو مألوف فى مثل هذه المصطلحات ـ ومكونان من لفظين، فإذا استثنينا الشق الثانى وهو Logie والذى يعبر عن صفة العلم، وهو لاحقة طبيعية فى كل المصطلحات والتى تعبر عن العلوم، نجد أن أوجه التداخل تتركز فى الشق الأول، Biblio وتعنى كتاب، ـ وقد تعرضنا لشرحها سابقاً ـ، و Document وتعنى وثيقة مكتوبة أو مطبوعة، التساؤل هنا ما الفرق بين الكتاب والوثيقة المكتوبة أو المطبوعة؟ وهل الكتاب لايعد وثيقة؟ ـ وإذا كان كذلك فما هو الفرق بين العلم الذى يتعامل مع «وثيقة الكتاب» والعلم الذى يتعامل مع علم الوثائق ككل. وإذا لم يصنف الكتاب كوثيقة مطبوعة أو مكتوبة؟ ـ فبماذا يصنف إذاً؟ . هذا بجانب تساؤلات أخرى تختص بمصطلح Documentologie ، وكيفية تفسيره والتعامل معه، فمثلاً، هل يؤخذ هذا العلم من زاوية تعامله مع شكل وطبيعة الوثيقة، وتحليلها مادياً وموضوعياً، ويدخل فى ذلك مفاهيم الفحص والتحليل والتحقيق والنشر... الخ.؟، أم يؤخذ من جانب التوثيق للوثيقة لتتعامل فى هذا الصدد مع الأنشطة والتقنيات التوثيقية من جمع وتصنيف ومعالجة (فهرسة وتكشيف) وحفظ واختزان واسترجاع... الخ.، وقد أوحت كتابات أوتليه OTLET حول هذا الموضوع سواء من زواية مستوى التناول أو عن طريق الإيحاء المباشر، بضرورة التوسع فى الكتابات والدراسات والبحوث: حول معضلة «الكتاب»، «الوثيقة» و «والتوثيق» وجميع الوسائط الكتابية الأخرى.

وبذلك فتح أوتليه OTLET آفاقاً جديدة، وأضاف أبعاداً أخرى إلى قضية الببليولوجى، بطرحه لرؤيته المتعلقة بعلم الوثائق والتوثيق، مما أدى إلى أحداث المزيد من المناقشات التنظيرية بعد دخول هذه المتغيرات الجديدة، وتوسعت دائرة النقاش لتشمل علم الوثائق، والتوثيق وعلاقتهما بالببليولوجى والببليوجرافيا، فى محاولات أكاديمية تنظيرية للفصل ما بين هذه المفاهيم: وإيجاد العلاقات «المتوازنة» بين تلك العلوم المتوازية والمتقاربة إلى حد بعيد فى مفاهيمها.

وبجانب قيام أوتليه OTLET، كما أسلفنا ـ بإيجاد القاعدة الأساسية للأطر العلمية للببليولوجى، ووضع أساسه النظرى ومناهجه البحثية، وأسس تطبيق المناهج الإحصائية على الظواهر والأنشطة المعنية والاجتماعية المحيطة بالكتاب (الببليومترى). فقد قام أوتليه OTLET، بدراسة العلاقات بين الببليولوجى، والمجالات العلمية القائمة، وقد أوضح فى كتاباته بأن الكتاب الذى يُعد أحد المحاور الأساسية ـ وإن لم يكن الوحيد ـ فى علم الببليولوجى، يمكن أيضاً أن يُدرس ويحلل من خلال مناظير علمية، لأنظمة علمية مختلفة، كالمنظور اللغوى، المنطق، علم النفس، والمنظور

التقنى، والاجتماعى، والسياسى، والاقتصادى...الخ. وقد أعطى أمثلة كثيرة حول هذه الفرضية، نورد منها ما يتعلق بعلم اللغة، وقد مثل هذه العلاقة بمنظور أطلق عليه فقه اللغة البيليولوجى أو علم دراسة النصوص البيليولوجى LA PHILOLOGIE BIBLIOLOGIQUE ، واعتبر هذا المنظور أحد المناظير المتفرعة من النظرية العامة للبيليولوجى، وقد عبر قائلاً:

[العلاقات بين البيليولوجى واللغة تتشكل فيما يمكن أن نطلق عليه فقه اللغة البيليولوجى][٣٠].

أشار أوتليه أيضاً فى كتاباته بأنه من المعارضين لدراسة البيليولوجى من خلال أنظمة أو إجراءات تمثلها حلقات منفصلة أو ما كان يسمى بنظام السلاسل Chaine وإنما يفضل إجراء دراسته من خلال نظام شمولى مترابط ومتفاعل La bibliolog-ie systemique، ولذا فقد استند فى رؤيته على تحليل مفردات النظام البيليولوجى ودمجه كنظام فرعى فى النظام الشامل. وقد عبر عن ذلك من خلال تعريفه للبيليوجرافيات بأنها:

[البيليوجرافيا، هى وصف للحقائق عبر الأزمنة، أو تاريخ الحقائق عبر العصور، أو دراسة مقارنة للأعمال المكتوبة][٣١].

لم يكن أوتليه OTLET، العالم الأوروبى الوحيد الذى قام بمجهود لتأصيل مفاهيم هذا العلم فى خلال الفترة من نهاية القرن التاسع عشر إلى قبيل منتصف القرن العشرين، بل تزامن معه فى هذه الفترة العديد من العلماء الأوروبيين الذين ساهموا بكتاباتهم التنظيرية، وبحوثهم الأكاديمية فى إرساء قواعد هذا المجال العلمى. فبينما كان أوتليه-OT LET، يحاول التعامل مع المفاهيم والأطُر التجريدية والتنظيرية الشمولية للبيليولوجى، كان هناك علماء آخرون يتناولون هذا الموضوع بمنهجية تفصيلية من خلال دراسة مفاهيم المفردات التى تشكل هذا العلم، ومحاولة تحليل العلاقات التى تربط ما بينها للوصول فى النهاية إلى تجميع المفردات والأجزاء وتنسيقها، بحيث يتمكنوا من تكوين صورة لنظام متكامل لهذا العلم، وهذه المحاولات أخذت توجهات وأنماط بحثية شتى، وقد رأيت أن تكون تلك الجهود والمحاولات، موضوع محورى التالى لهذه المرحلة من التطور التاريخى للبيليولوجى.

٤/ ٢/ ٢ - المحور الثانى: جهود نالعلماء الأوروبيون فى تأصيل مفاهيم مناهج بحث البيليولوجى

كانت الرؤية المنهجية للبيليولوجى، محور اهتمام عدد من العلماء الأوروبيين، حيث جسدت المدرسة الفكرية الأوروبية هذه الرؤية من خلال العديد من البحوث والدراسات التى نشرت حول هذا الموضوع، ومن أوائل المحاولات، تلك التى قام بها ـ منفرداً أو بالاشتراك مع أوتليه ـ العالم البولندى أيوينسكى IWINSKI، وذلك من خلال كتاباته منذ نهاية القرن التاسع عشر، للتعريف بمناهج البحث الإحصائى للإنتاج الفكرى العالمى. وقد نشر أعماله التى تضمنت نتائج دراساته حول هذا الموضوع، فى سلسلة من المقالات فى دورية «حقوق المؤلف Droit d'auteur، وقد شاركه فى هذه الجهود العالم السويسرى روثليسبيرجر ROTHLISBERGER، الذى ساهم فى تدعيم هذه المناهج الإحصائية عن طريق نشره للإحصاءات العالمية الجارية لتغطية الإنتاج الفكرى العالمى سنوياً، مما فتح المنافذ أمام الجهود التنظيرية لوضع الفروض البحثية والنظريات العلمية، حول تداول المعلومات المكتوبة على مستوى المجالات المعرفية المختلفة، وتواصلت الجهود البحثية فى هذا الاتجاه الإحصائى عن طريق علماء

آخرين أمثال الفرنسى ج. مينثا J.MENTHA إلى مابعد الحرب العالمية الثانية ـ ومن خلال هذه الرؤى المنهجية بدأت صورة تاريخ الكتاب وآلية تداوله تتضح شيئاً فشيئاً.

وفى توجه بحثى آخر، حول تأصيل المناهج الإحصائية فى مجال الببليولوجى قام العالم الفرنسى لوسيان مارش Lucien MARCH، فى الثلاثينيات من هذا القرن ومن خلال أنشطة «المعهد الدولى للتعاون الفكرى-Institut International de Coopera tion Intellectuelle » ـ الذى كان يقوم آنذاك بدور مشابهه للدور الذى تلعبه الآن «المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم: UNESCO» ـ بوضع التصور للشكل المنهجى للإحصاء المقارن للببليولوجى، وكيفية تطبيقه على المستوى العالمى.

كما كان لجهود العالمين البولنديين موزكوويسكى MUSKOWSKI[٣٢] و روليكويسكى RULLKOW-SKI، الأثر الكبير فى تعضيد هذا التوجه، بكتاباتهما التنظيرية حول هذا الموضوع، ويرجع إليهما الفضل فى إعطاء تلك المناهج دفعة قوية، مما أدى الاعتراف بها كمناهج علمية معتمدة فى هذا المجال، وأسفرت تلك الجهود فى نهاية الأمر، إلى تبنى اليونسكو ، لتلك المناهج الإحصائية المقارنة للإنتاج الفكرى العالمى، واستخدامها فى جميع أنشطتها المتعلقة بهذا المجال، عند إنشاء هذه المنظمة بعد الحرب العالمية الثانية. وعلى صعيد آخر نجد العالم الفرنسى فرانسوا جفال[٣٣] Francais JAVAL قد قام بجهود نحو تأصيل المفاهيم التى تربط ما بين الببليولوجى والعلوم الانسانية والاجتماعية، وبتعبير آخر كانت بحوثه ترتكز على أحد مفاهيم المنظور النظامى للببليولوجى ـ الذى نادى به أوتليه ـ وفى هذا الصدد، كانت دراساته وبحوثه تتعلق بالمنظور الفزيولوجى (العضوى)، والسيكولوجى (النفسى) للقراءة والكتابة[٣٤]. وتدعيماً لنفس التوجه البحثى، قام نيكولاس روبكين Nikolas Roukine»، فى عمله الذى نشر عام ١٩٢٢ ، بعنوان «مقدمة لمنظور علم النفس فى إنتاج وتوزيع تداول الكتب»، بدراسة العلاقة ما بين إنتاج الكتب، والعادات القرائية، وتأثيرها على تشكيل مفاهيم وسلوكيات القراء، وارتباط ذلك بتكون التيارات والمدارس والفكرية والعقائدية فى المجتمعات المختلفة. وكان بكتاباته هذه يفتح المجال أمام التطور الذى طرأ على مفهوم الببليولوجى ليتحول من علم الكتاب «إلى علم الكتابة» «والاتصال المكتوب».

أما الكتابات عن التاريخ الاجتماعى لظاهرة القراءة كأحد مفردات النظام الببليولوجى عن طريق استخدام المناهج الإحصائية للدراسة والتحليل، فقد كان محور كتابات دانيل مورنيت Daniel Morent، منذ بداية القرن العشرين[٣٥]. أما العالمان لويجين LOWIAGIN، وليسكوفسكى LISOVSKI، فقد كانا يمثلان المدرسة الفكرية الببليولوجية الروسية، وقد بدأ اهتمامهما بهذا المجال منذ نهاية القرن التاسع عشر (١٨٨٨)، حيث قاما بدراسة وتحليل وتطوير نظريات ومناهج حول الببليولوجى كعلم للكتاب، فى إطار رؤية تاريخية اجتماعية، وقد أشار إلى ذلك موزكويسكى فى بحثه «حول الإحصائيات العالمية للمطبوعات: Sur la Statistique International des Imprimes» الذى قدمه كورقة عمل فى المؤتمر الدولى للمكتبيين الذى عُقد فى براغ، عام ١٩٢٦[٣٦].

نخلص من العرض السابق أن الفترة التى تقع ما بين نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، تمثل فترة اهتمام بمجال المعلومات المكتوبة، وتتميز بتطور مطرد فى المفاهيم والتطبيقات الببليوجرافية، وتقنيات التوثيق، وعلم الوثائق، ونظريات الاتصال، وظهور وسائط أخرى للمعلومات

خلاف المواد المطبوعة الدورية منها وغير الدورية، وكانت الكتابات العلمية والأكاديمية التى تدور حول تلك المتغيرات فى مجال المعرفة المكتوبة، سواء ما يختص منها بالمفاهيم أو بالأشكال المنتجة، تتفق فى محاورها المتعلقة بالمبادئ الأساسية على أهمية هذه التطوات الجديدة وضرورتها، إلا أنها كانت تتباين فى كثير من الأحيان ـ حول الأنظمة والنماذج العلمية التى يجب اتباعها لتحقيق التطور المنشود، وأدى هذا كله إلى حدوث الكثير من الضغوط على العاملين والمنتسبين إل المجال العلمى الأكاديمى والمهنى للمعلومات، لمواكبة هذا التطور السريع، لإيجاد صيغة علمية مناسبة، وموقع علمى معترف به، خاصة وأن الأنظمة والمجالات العلمية الأخرى كانت تتطور بصورة مطردة وسريعة، وتأخذ مكانها على الخريطة العلمية، وما كان لمجال المعلومات والاتصالات المكتوبة أن يتخلف عن هذه الظاهرة العلمية. وهنا برز دور الكتابات والبحوث التنظيرية لاخصائيى المجال كأوتلية OTLET (البلجيكى)، أيوينسكى IWINSKI (البولندى)، روتليزبيرجر ROTHLISBERGER (السويسرى)، موزكووسكى ورولوكويسكى MUSZKOWSKI و RULLKOWSKI (البولنديين)، روبكن ROUB-KINE ومورنيت MORNET ومارس MARCH وجافال JAVAL (الفرنسيون)، ويندهام WENDHAM (الانجليزى)، ولويجين LOWIAGIN وليسوفسكى LISOVSKI (الروسيان)، وغيرهم من علماء أوروبا، فى بلورة المفاهيم التطبيقية والممارسات المهنية للمجال (كالببليوجرافيا، وتقنيات المكتبات، والتوثيق... الخ)، ووضعها فى إطار علمى وأكاديمى، والتى وجد فيها العاملون فى المجال والمنتمون إليه، حلاً مثالياً للوصول بمجال تخصصهم إلى الآفاق العلمية المطلوبة، وإضفاء الشرعية الأكاديمية على الممارسات المهنية التى يقومون بها، مما أدى إلى ظهور الببليولوجى كدعامة تنظيرية تستند عليها كل تطبيقات المجال. لذا نجد، أن الببليولوجى BIBLIOLOGY / BIBLIO-LOGIE، الذى بدأت نشأته فى بداية القرن التاسع عشر، عن طريق علاقته بالببليوجرافيات BIBLIOG-RAPHY / BIBLIOGRAPHIE، ثم بالمنظور النظامى الشمولى SYSTEMIQUE BIBLIOLOGIQUE، الذى طرحه أوتليه OTLET، بجانب فتحه لملف علم الوثائق DOCUMENTOLOGY / DOCUMEN-TOLOGEI، كبُعد جديد للرؤية التنظيرية، والذى تزامن مع ظهور الكتابات والمناقشات حول نظريات وعلوم الاتصال COMMUNICOLOGY / COM-MUNICOLOGIE، وبالجهود التى قام بها علماء المجال الأوروبيون، والتى شملت المجالات التنظيرية، والأبعاد التاريخية والاجتماعية، والمناهج البحثية الإحصائية، برز علم الببليولوجى على الخريطة العلمية الأوروبية، وإن تطلب هذا الأمر العديد من السنوات حتى تمكن هذا العلم من احتلال مكانته بين علوم المعلومات والاتصال المكتوبة، وإن كان مؤسسة ورائده فى العصر الحديث بول أوتليه P. OTLET، الذى توفى عام ١٩٤٤، لم يعاصر إلا بدايات هذه المؤشرات التى ظهرت نتائجها فى النصف الثانى من هذا القرن.

كان لقيام الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩/ ١٩٤٤، الأثر الكبرى فى ركود الكثير من الأنشطة العلمية فى مجالات العلوم الانسانية والاجتماعية، وخاصة فيما يتعلق بالجوانب التنظيرية و الأكاديمية لهذه العلوم، وذلك نتيجة للظروف التى صاحبت هذه الحرب، والتوجهات المحلية والإقليمية والدولية، نحو تغذية وتطوير المؤسسات العسكرية، والتركيز على الجوانب العلمية والتقنية الموجهة لتدعيم المجالات

العسكرية، وآلية اقتصاديات الحرب، واستمرت هذه الفترة حتى قبيل منتصف القرن العشرين: حيث كان المجتمع الدولى فى حاجة إلى بضع سنوات ـ بعد إعلان السلام ـ لأستعادة توازنه الطبيعى، ولكى يعيد تشكيل الرؤى والمفاهيم، ويحاول التقليل من آثار الدمار المادى والمعنوى الذى أصاب البشرية خلال تلك الفترة العصيبة، ويبدأ بوضع أسس بناء مجتمعات ما بعد الحرب. ومن الطبيعى أن تتأثر الجهود والكتابات والدراسات والبحوث لمجال الببليولوجى بهذه المعطيات الدولية، كمثيلاتها من مجالات العلوم الاجتماعية والانسانية، وكان لابد لها بأن تدخل فيما يمكن أن يوصف «بالسبات العلمى» ـ إذا صح التعبير ـ، وتجمدت ـ بالتالى ـ الأنشطة والجهود التى قام بها علماء المجال خلال الفترات السابقة، من بداية القرن التاسع عشر إلى بداية الحرب العالمية الثانية، وبهذا دخلت المفاهيم المصاحبة لهذه الجهود مرحلة «التجمد العلمى» لحين إشعار آخر.

وبدأت مرحلة جديدة، حيث شهد النصف الثانى من القرن العشرين بداية استقرار المفاهيم حول الببليولوجى، كأحد العلوم المتفرعة من «علوم المعلومات والاتصالات Sciences de l'Information et de la Communication »، وكثرت الكتابات حول هذا العلم وتعددت، بحيث أصبح حقيقة واقعة لايمكن تجاهلها فى المجالات العلمية والأكاديمية الأوروبية، وستكون تلك المرحلة هى محطتنا التحليلية التالية فى التأريخ للببليولوجى.

٣/٤ ـ المرحلة الثالثة: بداية الاستقرار العلمى: النصف الثانى من القرن العشرين

يمكن تحديد عدة محاور زمنية، تمثل فى مجموعها المنعطف الجديد لتاريخ الببليولوجى فى مجتمعات ما بعد الحرب، يبدأ أولها قبيل منتصف القرن ويمتد إلى نهاية العقد السابع، حيث يلتحم زمنياً مع المحور التالى، الذى يغطى فترة السبعينات. وحتى قبيل انتهاء العقد التاسع. أما المحور الثالث فيؤرخ له من عام ١٩٨٨، تاريخ بداية إنشاء «الجمعية الدولية للببليولوجى/ «L'Association International de Bibliologie International Association of Bibliology» وهو الإنجاز الذى تجسدت فيه ـ إلى حد كبير ـ طموحات العاملين فى المجال والمنتمين إليه، وهى تلك الجمعية، التى أخذت على عاتقها منذ إنشائها رعاية هذا العلم واحتضانه وإضفاء الشرعية العلمية الدولية على أنشطة الأكاديمية والعلمية والبحثية، والتعريف به بين الأوساط العلمية والدولية من خلال برنامج عمل دولى طموح.

١/٣/٤ ـ مجتمع، جيل، مفهوم: جديد. نهاية العقد الخامس / بداية العقد السابع

شهدت الفترة ما بين قبيل منتصف نحو القرن العشرين وبداية العقد الثامن منه، تحركاً جديداً إعادة الاهتمام بالببليولوجى كمصطلح وعلم له نظرياته ومناهجه وتطبيقاته العملية، ليأخذ أبعاداً ومفاهيماً جديدة، كنتيجة طبيعية لتغيير الكثير من المفاهيم التى تأثرت ـ بل ـ وانقلبت رأساً على عقب، من جراء نتائج الحرب العالمية الثانية، والتى ظهرت آثارها واضحة على كل المجالات العلمية والأكاديمية المعروفة آنذاك، وكان من نتائجها، اختفاء مفاهيم علمية، وظهور أخرى جديدة، واندماج بعضها وانفصال البعض الآخر، وظهور بعض العلوم الجديدة وانزواء البعض الآخر على الخريطة العلمية، وانسلاخ علوم وأنظمة من أخرى قائمة بالفعل، وفى خضم هذه المتغيرات العلمية الهائلة، وتفجر الكثير من القضايا والرؤى العلمية، لمراجعة المفاهيم التى كانت

سائدة فى فترة ما قبل الحرب. ظهر جيل جديد من علماء الببليولوجى الأوروبيين، أخذ على كاهله مسؤولية نفض الغبار عن المفاهيم التى ارتبطت بهذا المجال قبل الحرب: وبدأ فى ربطها بمعطيات العصر الجديد، وأخذت بحوثهم ودراساتهم، مساراً يتسم بالمعالجة المنهجية العلمية ـ سواء على مستوى المفاهيم المرتبطة بهذا العلم (التنظير) أو فيما يخص المفردات التى تشكل النظام الببليولوجى (التطبيق) ـ على ضوء الرؤية العلمية للمجتمعات الجديدة.

وفى هذا الصدد، نجد أن الكتابات فى هذه الفترة عالجت الجوانب الاجتماعية والنفسية للببليولوجى فى إطار بحوث ودراسات، أعادت النظر فى المفاهيم المتصلة بالمعطيات التاريخية التى تفسر ظواهر هذا العلم ومفردات نظامه، وقد تصدى لهذه القضايا عدداً من العلماء، أمثال دومازيديه DOMAZEDIER، هاسينفورديه HAS-SENFORDERN.، ن. روبين N. ROBINE روبير اسكاربيه R. ESCARPIT، صاحب العمل الشهير «ثورة الكتاب La revolution du livre»، الذى ترجم إلى عدة لغات منها اللغة العربية[٣٧]. كما تناولت كتابات تلك المرحلة ـ أيضاً ـ المنظور التطبيقى وعلاقته بالمنظور الاجتماعى للببليولوجى، من خلال رؤية نظامية شمولية تتناول أنشطة الإبداع الفكرى، والنشر، والتوزيع، وتقنيات المعالجة والتحليل والتخزين والاسترجاع والبث للمعلومات المكتوبة، ومراجعة مناهج البحث الإحصائى للمجال (الببليومترى)، على ضوء ما طرأ من تطورات تقنية وعلمية غيرت من مفاهيم هذا المجال التخصصى وتطبيقاته الجديدة، ويذكر فى هذا الصدد علماء مثل ف. زولتوويسكى V. ZOLTOWSKI، م. زيرتوويسكا M. CZERNOWSKA، هـ .ج. مارتان H. J. MERTTIN و روبير استيفال R. ESTI-TIVALS[٣٨] (الذى أنتخب فيما بعد رئيساً للجمعية الدولية للببليولوجى).

وتوسعت الكتابات فى مجال الببليولوجى، لتشمل شتى ضروب ارتباطاته مع المعطيات الاجتماعية العصرية، فنجد الكتابات حول الببليولوجى الاقتصادى، والسياسى، والتعليمى، والثقافى... الخ.، والتى حاول من خلالها الباحثون أمثال روبير اسكاربيه R. ESCARPIT، وجون ماريا J. MEYRIA و روبير استيفال R. ESTIVALS، الربط ما بين وسائط الاتصال المكتوب والظواهر الاجتماعية لمجتمعات ما بعد الحرب.

٢/٣/٤ ـ المحور الثانى: الانتشار الأكاديمى.. ولكن... «علم الكتاب» أم «علم الكتابة»، بداية العقد الثامن / بداية العقد التاسع

تجمعت كل الظروف العلمية والأكاديمية والاجتماعية، فى هذا العقد من الزمان، لكى يبدأ الببليولوجى مساراً آخر، برؤية جديدة تتغير بها مفاهيم التعامل مع هذا العلم. ولا يُعد هذا بالأمر المستغرب فى مجال العلوم التى لم تستقر مفاهيمها ـ بعد ـ بشكل نهائى، فالقائمون عليها فى حالة بحث دائم عن مسارات جديدة، ومحاور إضافية يحاولون من خلالها تطوير مفاهيمها ودفعها إلى قمة الهرم العلمى.

تميزت هذه الفترة بتطور كبير فى مجال المعلومات والاتصالات، حيث بدأت وسائل الاتصال تأخذ أبعاداً حضارية جديدة، بدخولها فى عصر التطبيقات التكنولوجية المتطورة لعوالم الحاسبات الآلية والتقنيات المستحدثة فى مجال إنتاج أوعية المعلومات المطبوعة وغير المطبوعة، مما أفرز وسائط حديثة ومتطورة أثرت بشكل إيجابى على قنوات الاتصال الاجتماعى بكل ضروبه وأشكاله. وبالتالى

على المجالات العلمية والدراسية والأكاديمية المتصلة بهذه التقنيات والأوعية المعلوماتية والاتصالية، الأمر الذى حتم على القائمين عليها ضرورة الاستجابة الفورية لهذه المعطيات العصرية، باستحداث مسارات دراسية جديدة، سواء على مستوى التعليم الجامعى، أو الدراسات العليا. فى مؤسسات التعليم العالى، فى التخصصات المتصلة بعلوم المعلومات والاتصالات، كنتيجة حتمية لذلك، بدأ البحث العلمى المتخصص فى هذا المجال يأخذ أبعاداً جديدة تتماشى مع هذه الطفرة.

هذا التطور الذى حدث فى المجال الأكاديمى لعلوم المعلومات والاتصالات، أوجب إعادة الرؤية فى الدراسات والبحوث حول أوعية المعلومات المطبوعة بأشكالها المتنوعة، ووضعها فى إطار جديد تماماً يتماشى مع المتغيرات الحديثة، وبدأت بالفعل محاولات إدماج ها النوع من الدراسات فى إطار علوم المعلومات والاتصالات، وكان لابد من مدخل علمى يتم على ضوئه إتمام هذا التزاوج الأكاديمى بنجاح، وقد برز الببليولوجى، كمدخلاً علمياً مناسباً، تأخذ من خلاله هذه التقنيات والوسائط الحديثة، وما يحيط بها من أنشطة ومؤسسات، شرعيتها الأكاديمية. ولكن، كان هناك تساؤل قائم، يتعلق بالمفهوم السائد للببليولوجى «كعلم الكتاب»، وإمكانية استيعابه لهذه المفردات العلمية الجديدة من خلال منظوره العلمى الحالى، وكان لابد من التفاكر وإعادة الرؤية فى تطوير هذا المفهوم، قبل قبول وتبنى هذا التوجه.

و «لحسن الطالع»[٣٩]!!، فإن الحاجة كانت ملحة، والظروف مواتيه، والأحداث سريعة ومتلاحقة، وتضافرت جهود علماء المجال لإضفاء ثوب جديد على الببليولوجى، وتغيير بعضاً من مفاهيمه الأساسية، ليناسب دورة الجديد. وكان لابد أن يبدأ التغير من جوهر العلم ومفهومه الأساسى، وأعنى ذلك «الكتاب». وبدأت سلسلة البحوث والدراسات لإعادة النظر فى مفهوم وتعريف الكتاب[٤٠]. وقام علماء بولنديون بنشر موسوعتين لعلوم الكتاب[٤١]. وتعددت البحوث والدراسات التى طرحت من خلالها الآراء التى تنادى بالعمل على تغير المفاهيم المحيطة بالكتاب. وتوجت هذه الجهود، عندما قامت اليونسكو بالتحضير للسنة العالمية للكتاب عام ١٩٧٢ «وسعت فى هذا الأمر إلى استطلاع رأى الخبراء فى مجال نظم المعلومات والاتصالات حول تعريف مصطلح «كتاب»، ومن الجلى أن الاستطلاع جاء عن رغبة أكيدة، للمنظمة العالمية فى التوصل إلى تعريف جديد «للكتاب»، يتماشى ومعطيات العصر، ويبرز التطورات الجديدة التى طرأت على مفاهيم التى ارتبطت بهذا المصطلح»[٤٢]. وبعد استطلاع رأى الخبراء أصدر اليونسكو UNESCO، التعريف التالى للكتاب «كلمة كتاب، تغطى كل أشكال الكتابات المطبوعة التى تحث جيداً على التأمل والتفكير، وهذا يشمل أيضاً الدوريات والأنماط الأخرى من مواد القراءة»[٤٣].

وعلى ضوء هذا المؤتمر، قام ثلاثة من العلماء الفرنسيين بإنتاج أول عملٍ ضخم، يتناول مفاهيم الببليولوجى بشكل موسع، يعد الأول من نوعه، بعد عمل أوتليه OTLET الذى نشر عام ١٩٣٤. وقام مؤلفى العمل من خلال فصل كامل أطلق عليه «الببليولوجى، المنظور العلمى»، بدراسة وشرح، وتحليل المصطلح على ضوء التطورات التى طرأت عليه، منذ ظهوره فى عمل أوتليه ١٩٣٤ إلى عام ١٩٧٢، وقد أطلق على هذا العمل عنوان «الكتاب الفرنسى، أمس، اليوم، غداً[٤٤] « Le Livre Fran-cais, hier, aujourd' hui, demain». وبدأ الببليولوجى

بمنظوره الجديد، يجد اهتماماً من الباحثين والعلماء فى مجال المعلومات والاتصالات، وقد كان لكتاب العالم الرومانى ديما دراجان-Dima DRA GAN ، الذى نشره عام ١٩٧٦ بعنوان «البيليولوجى الشامل « Bibliologia Generala» صدى واسع فى المجال، حيث تناول فى عمله المفاهيم المتصلة بعلوم الكتاب والكتابة من خلال منظور علمى شامل وموحد[٤٥]. وعلى صعيد الجمعيات العلمية، تم إنشاء جمعيتين متخصصتين فى فرنسا، عام ١٩٧٦، أولهما الجمعية الفرنسية للبيليولوجى La Societe de bibliologie et Sehemat-isation، فى باريس، والتى أصدرت أو دورية متخصصة للبيليولوجى : Schema et Scematisation Revue de Biblioligie حيث تخصصت فى الكتابات حول البيليولوجى، وتناولت قضاياه الحيوية ومعضلاته البحثية، ومناهجه وخطط تصنيف الكتابات المتعلقة بهذا المجال، كما أفسحت المجال للباحثين فى الإدلاء بآرائهم حول نظريات وتطبيقات هذا العلم، ونشرت هذه البحوث تباعاً فى الدورية، مما أوجد للبيليولوجى طريقاً للانتشار. أما الجمعية الثانية، والتى أنشئت ـ أيضاً ـ فى نفس العام، فهى «جمعية علوم المعلومات والاتصالات».

« Societé des Sciences de l'Information et de la Communication» التى تبنت، بعد مرور عامين من إنشائها، عام ١٩٧٨، مؤتمراً عالمياً حول المعلومات والاتصالات « INFORCOM »، وفى هذا المؤتمر تم التعرض لقضية البيليولوجى والمفاهيم المتصلة به، وأثيرت تساؤلات حول، ما إذا كان من الملائم أن يظل البيليولوجى فى إطار مفهومه الأساسى الذى طرحه به أوتليه OTLET، أم يجب أن يتغير على ضوء التطورات الحديثة التى طرأت على مجال المعلومات والاتصالات، والتى أخذها المؤتمرون فى الاعتبار عند مناقشتهم لهذه القضية، وقد أجمع المؤتمرون على أن هذه التسمية، أى «علم الكتاب»، قاصرة ومحدودة، ولا تعطى المفهوم الكامل لهذا العلم على ضوء معطيات العصر، ولهذا، اتخذ المؤتمر توصية بتكوين فريق عمل، مكون من علماء متخصصين فى المجال، لدراسة هذا الأمر، والخروج بتصور شامل وتوصيات محددة، لأقرار المفاهيم المتعلقة بالبيليولوجى والمتناسبة مع المعطيات الجديدة لعلوم المعلومات والاتصالات، وتم تكوين مجموعة العمل من ج.البير J. ALBERE ، ج. بريتون J. BRETON، ر. استيفال R. ESTI-VALS، ج. جينو J. GUENOT، ج. ميريا J. MEYRIA، وأخذت هذه اللجنة العلمية على عاتقها دراسة هذه القضية على ضوء المعطيات التالية[٤٦]:

١ ـ مصطلح ببليولوجى، فقد الكثير من الفاهيم التى ارتبطت به خلال رحلته الطويلة، كما أنه اكتسب مفاهيم أخرى منذ استخدامه للمرة الأولى، وذلك، كنتيجة حتمية لمروره بالعديد من المتغيرات التى تتصف فى بعض جوانبها بالسلبية والركود، وبالنشاط والحيوية فى بعضها الآخر، ما أدى إلى اتصاف بعض مفاهيمه الأساسية بالغموض وعدم الوضوح العلمى.

٢ ـ لازالت بعض المفاهيم المتعلقة بعلاقة البيليولوجى، وبعض العلوم الأخرى كعلم الوثائق Documentology / Documentologie، عالقة به، ويلزم العمل على فك هذا الاارتباط، حتى ينقى العلم مما زال عالقاً به من رواسب تؤثر على مفاهيمه الأساسية.

٣ ـ استخدام اليونسكو UNESCO، لمصطلح ببليولوجى، لازال متسماً بعدم الوضوح والمحدودية، مما يؤثر سلباً على الرؤية الحقيقية لأبعاد هذا العلم، ولذا توجد ضرورة لتصحيح هذا المفهوم لدى تلك

المنظمة الدولية، ومحاولة الاستعانة بإمكاناتها الكبيرة فى نشر المفاهيم الصحيحة حول الببليولوجى، نظراً لما لهذه المنظمة من وجود مؤثر فعال فى تأصيل المفاهيم فى مجال العلوم.

٤ ـ استناداً على أن الببليولوجى، أحد العلوم المتفرعة من علوم المعلومات والاتصالات، لذا يجب التعامل معه من خلال هذا الإطار والمفهوم العلمى، ولكن الصعوبة فى ذلك أن المفاهيم المتعلقة بعلوم المعلومات والاتصالات، كانت ولازالت غير واضحة أو محددة.

٥ ـ لابد من الأخذ فى الاعتبار، أن الببليولوجى، وأن عد كعلم متفرع من علوم المعلومات والاتصالات، إلا أنه يختص بسمات معينة تميزه عن باقى علوم هذا المجال، حيث أنه يستند فى المقام الأول على «أوعية معلومات مكتوبة»، أى على «ظاهرة الكتابة»، وهى ظاهرة تمتد لتغطى العديد من أشكال التعبير الكتابى، بداية بالتصاوير والرسوم والنقوش، الرموز، والأشكال الإيضاحية، وحتى الحروف والأبجديات والشفرات والمعادلات العلمية المختلفة، قديمها وحديثها. بذا تتداخل وتندمج فيها أنظمة كتابية وطباعية متعددة، لها مفاهيمها المحددة سواء من زاوية الخصائص الشكلية (كالرمز، التصاوير، الحرف، الرقم.... الخ.)، أو من منطلق الخصائص الموضوعية (الدلالات اللغوية، اللفظية والمصطلحية، المعانى، التراكيب...الخ.). هذا بجانب أن أوعية المعلومات المكتوبة، تأخذ شكل وسائط متعددة، تختلف فى طبيعتها المادية والنوعية، وتتفاوت ما بين الوسائط القديمة للكتابة (الألواح والرقم الطينية، أوراق البردى، عظام الحيوانات، الأخشاب ولحاء الأشجار، الحجارة، الحرير...الخ.)، إلى الوسائط الورقية واللاورقية الحديثة، وتلك قبل الأخيرة يتم تصنيفها إلى عدة أنواع أساسية يشار إليها ـ عادة ـ كأوعية المعلومات أو أوعية المعرفة (الكتاب، الدورية، التقارير، الأطروحات، وثائق المؤتمرات... مخرجات الحاسب الآلى...الخ.). ومع التطورات والتقنيات الحديثة التى طرأت على هذه الوسائط، وغيرت من اجراءات وتقنيات انتاجها، وبدلت فى طبيعتها وأشكالها المعروفة والمألوفة، فكان لابد من تحديد موقف الببليولوجى من تلك التطورات، وما يترتب عليها من بحث ودراسة وتحليل هذه الأوعية وما يتصل بها من أنشطة وتطبيقات.

وقد خرجت اللجنة من خلال دراستها لهذه القضية الببليولوجية، بتوصيات عديدة، يهمنا منها فى هذا الصدد، التوصية التى نصت على ضرورة تغير مفهوم الببليولوجى، من «علم الكتاب» إلى مفهوم أوسع وأشمل، ليصبح «علم الكتابة»، وتلقف الباحثون، والجمعيات المتخصصة والمعنية بهذا المجال، هذا المفهوم الجديد وعملوا على نشره وتقديمه للأوساط العلمية والأكاديمية كمفهوما ومسماً يتم التعامل به مع الببليولوجى فى المرحلة القادمة.

وإننى أرى أن تغير مفهوم الببليولوجى من «علم الكتاب» إلى «علم الكتابة»، كان لابد أن يتم خلال هذه الحقبة الزمنية، لأسباب عدة، يمكن تلخيص أهمها فى الآتى:

١ ـ التطورات الكبيرة التى طرأت على تقنيات الكتابة، نتيجة للتقدم التكنولوجى الهائل، الذى غير طبيعتها ومفهمها كوسيط للاتصال.

٢ ـ أدى ذلك ضرورة تطوير وتحديث المناهج الدراسية، والمسارات الأكاديمية فى دراسات علوم المعلومات والاتصالات، فى مؤسسات التعليم العالى.

٣ ـ البحث عن الصيغة الملائمة والإطار العلمى

المناسب، للدراسات المقترحة، وظهور الببليولوجى كمُرشح رئيسى للقيام بهذا الدور.

٤ ـ ظهور صعوبة تبنى هذا التوجه، نتيجة لقصور المفاهيم الأساسية المحيطة بالببليولوجى فى استيعاب كل المفردات العلمية للدراسات المقترحة.

٥ ـ الحملة العلمية التى قام بها باحثو وعلماء المجال، لتطوير وتحديث مفاهيم الببليولوجى، ليتناسب والدور المرشح له فى المجال الأكاديمى، والتى أخذت مسارين، الأول منها، أدى إلى تغير مفهوم «الكتاب» ليستوعب كل أوعية المعلومات والوسائط الاتصالية المطبوعة، الدورية منها وغير الدورية، والثانى أدى إلى تنقية وتطعيم وتنقيح المفاهيم المتعلقة بالببليولوجى ليشتمل على كل المفاهيم المحيطة بظاهرة الكتابة، وبالتالى يتبلور مفهومه الأساسى إلى «علم الكتابة».

٦ ـ الدور الفعال والنشط، للجمعيات العلمية الإقليمية والدولية المتخصصة، فى تقديم الببليولوجى بصورته الجديدة «كعلم الكتابة»، مما أدى إلى تبنية من قبل العديد من الجامعات والأكاديميات الأوروبية، فى برامجها ومقرراتها الدراسية الجامعية، وإقراره فى خططها البحثية للدراسات العليا فى مجال علوم المعلومات والاتصالات.

وبذلك اكتسب الببليولوجى، ارضاً جديده فى المجال العلمى، وإن كانت طموحات المنتمين للمجال لم تتوقف عند هذا الحد، وسعوا للحصول على مكتسبات جديدة لتطوير مفهوم هذا العلم. بالفعل ونتيجة لهذه الجهود، وبعد بضع سنوات فقط من تحول مفهوم الببليولوجى من «علم الكتاب» إلى «علم الكتابة»، ـ تم مرة أخرى ـ تطوير هذا المفهوم إلى «علم الاتصال المكتوب»، وهى الرؤية التى استقر عليها علماء المجال، وأخذ بها، منذ بداية النصف الثانى من العقد التاسع، وتحت هذا المسمى أنشئت العديد من الجمعيات الوطنية، والجمعية الدولية للببليولوجى، وتم التعريف به إدراجه فى الدراسات الأكاديمية فى إطار هذا المفهوم، فى أكثر من عشرين دولة فى العالم. وتحليلنا التالى سيتناول هذا الموضوع بشىء من التفصيل.

٣/٣/٤ ـ المحور الثالث: الأبعاد الدولية «وعلم الاتصال المكتوب»: العقد التاسع/ بداية العقد العاشر

ببداية العقد التاسع من هذا القرن، بدأت تتضح الملامح الأساسية للببليولوجى، بعد انفصاله من مفهوم الأعمال الببليوجرافية الوصفية والتحليلية، والتقنيات التطبيقية للممارسات المهنية فى مجال المكتبات، كما أنه تحرر من إطار المفاهيم التاريخية والاجتماعية للكتاب، وخرج من دائرة علم الوثائق، وأبعاده الفلسفية والمصطلحية، ووجد الإطار العلمى المناسب «كعلم الكتابة»، ليشق طريقه منفرداً ومحرراً من كل هذه القيود. وكانت تلك الفترة مناسبة ـ أيضاً ـ ليخرج من دائرة المحلية والإقليمية إلى رحاب العالمية. وكان لزاماً فى هذه الفترة أن تبدأ دراسة لتوجهات ورؤى العلماء والعاملين فى المجال على المستوى الدولى، لاستطلاع رأيهم حول هذا العلم الجديد، وما هى درجة استعدادهم لتبنيه على مستوى الدراسات الأكاديمية فى الجامعات والمعاهد المتخصصة، وإدراجه فى برامجهم البحثية للدراسات العليا والبحوث العلمية للمجال.

وبدأت جهود المهتمين بهذا العلم تتواصل لتحقيق هذه الغايات، ففى نوفمبر عام ١٩٨١، قامت أكاديمية العلوم البلغارية، بتنظيم ندوة عن الببليولوجى، فى صوفيا، بعنوان «الببليولوجى، علم

الوثائق، علوم المعلومات والاتصالات: La bibliolog-ie, la documentologie et les sciences de l'information et la communication»[٤٧] وقد تم التركيز فى هذه الندوة على تدعيم التعاون الدولى فى مجال الببليولوجى، وقد تضمنت توصياتها العمل على إنشاء جمعيات للببليولوجى، على مستوى الدول المشاركة فى هذه الندوة، والسعى للتوسع فى إنشاء هذه الجمعيات على المستويات المحلية والإقليمية، تمهيداً للدعوة إلى إنشاء الجمعية الدولية للببليولوجى، كما أوصت بالعمل على إقامة المؤتمرات والندوات الدولية، لمناقشة قضايا الببليولوجى، وما يطرأ عليها من تطورات، لترشيد مساره والتغلب على أى عقبات يمكن أن تعوق تطوره وتأصيله.

وفى فبراير عام ١٩٨٤، عقدت ندوة ثانية بباريس، والتى أُطلق عليها ندوة باريس بعنوان «البحث والتعليم الببليولوجى وتعليم المهن الخاصة بالكتاب: La recherche et l' enseignement bibliolo-gique, et l'enseignement des metiers du livre»[٤٨] وتم خلال هذه الندوة، مناقشة الدراسات والبحوث المتعلقة بأنشطة الكتابة وتطبيقاتها فى المجتمع، والأبحاث والدراسات التنظيرية فى مجال الببليولوجى، وقد شارك فى هذا المؤتمر بجانب الباحثين الفرنسيين، باحثين على المستوى الأوروبى، والأفريقى، والعربى، وتم خلال الندوة تشكيل لجنة مؤقتة للجمعية الدولية للببليولوجى.

أما عام ١٩٨٥، فقد تميز بنشاط كبير، من أجل توحيد المكتسبات السابقة، وتدعيم مركز الببليولوجى العلمى، وتطوير التعاون الدولى فى هذا المجال. وعقدت فى تونس فى شهر فبراير، ندوة بعنوان «البحث والتعليم الببليولوجى، الكتاب والقراءة فى أفريقيا: « La recherch et l'ensiegnement bibliologique, le livre et la lecture en Afrique»[٤٩].

وقد تعددت المحاور التى قامت عليها بحوث هذه الندوة، تناول أولهما؛ البحث العلمى والأكاديمى فى مجال الببليولوجى؛ وناقش الثانى، أنشطة وتطبيقات المجال (نشر، طباعة، خدمات مكتبات ومراكز معلومات فى أفريقيا والبلدان العربية)؛ وتعلق الثالث بالمناهج والمقررات الدراسية فى مجال الببليولوجى فى بعض جامعات أفريقيا ودول المغرب العربى ـ وعلى أثر هذه الندوة تشكلت ـ أيضا ـ لجنة تحضيرية، والسكرتارية الفنية، للجنة الدولية للببليولوجى.

وفى شهر ديسمبر من نفس العام، عُقدت فى بودابست، ندوة ثنائية فرنسية مجرية حول «الكتابة، وتكنولوجيا الحاسب الآلى L'ecrit et l'Informatique»[٥٠]. وتناولت بحوث الندوة تأثير التكنولوجيا الحديثة على مجالات الكتابة، وأنشطتها المختلفة، وتأثير ذلك كله على مجال البحوث والدراسات والتطبيقات الببليولوجية. وفى هذه المناسبة، اجتمعت اللجنتان الفنية والتحضيرية للجمعية الدولية للببليولوجى، أقرتا برنامج عمل دولى، كان من بنوده الإسراع فى إجراءات إنشاء الجمعية الدولية للببليولوجى، لتأخذ شرعيتها الدولية، وتشجيع البحوث والدراسات فى هذا المجال، والسعى لإقامة قاعدة دولية تتمثل فى لجان وجمعيات وطنية للببليولوجى فى دول العالم.

وتواصلت الجهود الرامية إلى تعزيز مكانة الببليولوجى فى العالم، فعلى صعيد التعاون الدولى، أقيم فى باريس، ما بين ١٦ ، ١٨ مارس عام ١٩٨٧، مؤتمر دولى حول «النص، الكتاب، الوثيقة Le Text, le livre, le document»[٥١]، حيث تم فيه مناقشة هذه المفاهيم وعلاقاتها ذات الطبيعة

المتداخلة، ومدى تأثير التقنيات الحديثة على الإنتاج والإفادة من هذه الأشكال الاتصالية المكتوبة، ونتج عن المؤتمر، تبنى برنامج دولى للبحوث فى مجال الببليولوجى، وتأكيد أهمية دور الدورية الدولية للببليولوجى فى نشر البحوث الناتجة عن هذا البرنامج.

وبنهاية عام ١٩٨٧، كانت الاستعدادات النهائية لعقد الندوة الدولية للببليولوجى، فى تونس فى مارس ١٩٨٨، قد اكتملت، وبالفعل تم عقد االندوة، بعنوان «تعليم مهن الكتاب، وتكنولوجيا الاتصالات الحديثة» L'ensiegnement des matiers du livre et les nouvelles Technologies de la communication وأهمية هذه الندوة ترجع إلى عدة أسباب، أولها التجمع الكبير لعلماء وباحثين يمثلون لأربعة عشر دولة أوروبية وأفريقية وعربية، بجانب كندا، مما أثر على المجال البحثى للببليولوجى، بعرض الكثير من وجهات النظر التى تمثل العديد من المدارس الفكرية المختلفة وثانياً، تم فيها الإعلان الرسمى لإنشاء الجمعية الدولية للببليولوجى L Association International de Bibliologie' التى طال انتظار باحثو وعلماء المجال لها، وتم تشكيل عضويتها من الدول المجتمعة، وفتح باب عضويتها لاستقبال الطلبات من جميع أنحاء العالم، وفى هذا الصدد تم توجيه خطاب رسمى إلى اليونسكو، لاعتماد الجمعية فى برامجها الدولية المتعلقة بمجال المعلومات والاتصالات، وقبل نهاية المؤتمر، كان قد تم تشكيل أعضاء مجلس الإدارة، والمجلس التنفيذى، واللجان الفنية، وإعطائها الصلاحيات لبدء برنامج العمل الدولى الذى أقره المؤتمرون. أما الحدث الثالث، فهو يعد من أهم التطورات التى حدثت على مجال الببليولوجى منذ بداية هذا العقد، حيث توصل المؤتمرون بعد مناقشات عديدة حول قضية الببليولوجى، على ضوء البرنامج الدولى لتطوير الدراسات والبحوث فى المجال، والمقررات الدراسية الأكاديمية فى مستوى التعليم العالى، وعلاقة الببليولوجى بعلوم المعلومات والاتصالات، إلى التوصية بتغيير اسم العلم من «علم الكتابه» إلى مسمى آخر يستوعب هذه المعطيات الجديدة، ويعكس - فى نفس الوقت - علاقة العلم بمجال المعلومات والاتصالات، وتم تعديل المسمى القديم ليصبح «علم الاتصال المكتوب»، وتمت الموافقة على هذا المسمى الجديد بالاجماع. ونشرت الجمعية الدولية للببليولوجى بياناً مطولاً، بأربع لغات، الفرنسية، الانجليزية، العربية، البولندية، توضح فيه هذا المفهوم الجديد وتقدم الببليولوجى للعالم بصورته الجديدة. وبهذا دخل الببليولوجى مرحلة جديدة يشار فيها إليه «بالاتصال المكتوب».

منذ ندوة تونس ١٩٨٨، عُقدت العديد من المؤتمرات والندوات على المستويات الدولية والإقليمية والمحلية،فى إطار برنامج العمل الدولى للجمعية الدولية للببليولوجى (لا مجال هنا لذكرها بالتفصيل). نذكر منها الندوة الدولية الثامنة للببليولوجى التى عُقدت فى باريس فى سبتمبر ١٩٨٩، بعنوان «النظرية، المنهجية، والبحث فى الببليولوجى» La theorie, la methodologie et la re-cherch de la bibliologie حيث أسفرت هذه الندوة عن توصيات تتعلق بالعمل على نشر موسوعة للببليولوجى، ببليوجرافيا شاملة للأعمال والأبحاث والدراسات فى مجال الببليولوجى، خطة تصنيف شاملة للكتابات فى مجال الببليولوجى، بالإضافة إلى دليل ببليولوجى دولى، بالمؤسسات والهيئات الأكاديمية التى يعتمد فيها تدريس المواد والمقررات المتعلقة بهذا المجال، وأوصى المؤتمرون فى هذا الصدد بالعمل على نشر أدلة محلية وإقليمية يستند

عليها عمل هذا الدليل الدولى، وكُلفت لجان من الجمعية الدولية بمتابعة هذا الأمر.

وفى مارس ١٩٩٠، عُقد المؤتمر التاسع للببليولوجى تحت عنوان «الندوة الدولية التاسعة للببليولوجى[٥٢] «تحت رعاية الجمعية الدولية للببليولوجى، واليونسكو، ومعهد الصحافة وعلوم المعلومات بتونس، ومثلت فيه ٢٣ دولة[٥٣]، حيث نوقشت فيه القضايا الحيوية للببليولوجى من خلال أربع ورش عمل، تناولت كل منها إطار بحثى معين، حددت عناوينها كالآتى:

١ ـ الببليولوجى والاتصال Bibliologie et Communication

٢ ـ الكتابة، الصور، المشافهة والتقنيات الحديثة Ecrit, Image, Oral, et nouvelle Technologie

٣ ـ الكتابة والموروثات Ecrit et Patrimoine

٤ ـ الببليولوجى والمجتمع Bibliologie et Societef

أعلن من خلال هذا المؤتمر عن إنشاء ثلاث عشر جمعية أقليمية للببليولوجى، فى الدول المؤسسة للجمعية، وبدأ العمل فى البرامج الدولية التى تم اقتراحها والتوصية بها فى المؤتمر السابق، والتى تتعلق، بالببليوجرافيا، وخطة التصنيف، والموسوعة، والأدلة، كما أعلن المؤتمر عن إنشاء المسارات والبرامج الدراسية، وأعمال البحوث على المستوى الجامعى والدراسات العليا فى كل من فرنسا، بلجيكا كندا، الجزائر، المغرب، تونس، السنغال، ساحل العاج، ألمانيا، رومانيا، المجر، بولندا، وبلغاريا. وبدأ واضحاً أن الببليولوجى «علم الاتصال المكتوب»، بدأ يشق طريقه إلى العالمية ج بخطىً ثابتة وحثيثة.

٥ ـ المنظور التحليلى: رؤية تفسيرية لمسار تطور الببليولوجى

أود قبل أختتم دراستى هذه، أن ألقى الضوء على بعض الجوانب التى وجدتها عند بحثى فى هذا الموضوع مثيرة للاهتمام، أولها، يتعلق بتساؤل يتبادر إلى الذهن حول كيفية تفسير هذا المسار البطيئ الذى اتسم به التطور فى مجال الببليولوجى، وبتعبير آخر، لماذا تطلب الاعتراف بالببليولوجى كعلم، هذه الفترة الزمنية الطويلة نسبياً؟. فى اعتقادى، أن خلال الفترة من بداية القرن التاسع عشر، وحتى بداية القرن العشرين، لم يكن هذا المصطلح، يهم إلا فئات محدودة فى الأوساط العلمية، تتمثل فى العاملين فى مجال المكتبات كمهنيين وباحثين، ويلاحظ أيضاً أن القرن التاسع عشر تميز بالزيادة ـ النسبية ـ المطردة فى الإنتاج الفكرى العالمى، وهذه الزيادة ذات مغزى عميق، فمن الواضح أن هذا الإنتاج المتضخم كان له كبير الأثر على أنشطة العاملين فى مجال الكتاب (منتجين، موزعين، منظمين) وأيضاً على فئة الباحثين الراصدين والمقننين لهذا الإنتاج من خلال عمل القوائم والسجلات والتصنيف، ولذا نجد أن هذه الأعمال برزت كنشاط تقنى متميز، وأدى ذلك إلى تطوير تقنيات حفظ وتخزين واسترجاع هذا الإنتاج، مما ساعد فى تطوير خدمات المكتبات، ووضع على بساط البحث القضايا المتعلقة بإنشاء وتطوير وتحديث المكتبات، ومرافق المعلومات، كنتيجة لهذا التطور. وأدى النمو الكبير فى الإنتاج الفكرى ـ أيضاً ـ إلى ضرورة تصنيف وترتيب هذه الأعمال بمفاهيم منطقية جديدة، وبعمليات تقنية متميزة، وبالتالى بدأ التعرف والاعتراف بالببليولوجى، كمنطق متميز، وقيمة تنظيرية، ومفهوم علمى يختلف عن العمليات التقنية والإجراءات التطبيقية

فى مجال المعلومات، كما أن انتماء الببليولوجى، إلى مجال علمى لم تنضج مفاهيمه ومعاييره بعد، بل كانت هى الأخرى فى مرحلة التطور والتقلب وعدم الاستقرار، حيث نجد أن المفاهيم العلمية والتنظيرية المحيطة بعلوم المعلومات والاتصالات ـ بوجه عام ـ لم تبدأ فى الوضوح والاستقرار إلا مؤخراً فيما لا يزيد عن عقدين من الزمان، أقول أن انتماء الببليولوجى إلى مجال كهذا أدى البطئ النسبى فى مساره.

ولذا نجد أن الببليولوجى، فى مساره التطورى، كان يعتمد على أربعة عوامل، كان أولهما يتصف بالمحدودية، وثانيهما بالتغيرات المفاجئة، وثالثهما بالتأخر فى الظهور، أما رابعهما فكان يتصف بعدم الوضوح الكامل ويمكن تلخيصها فى الآتى:

١ ـ قلة الباحثين المهتمين بهذا المجال، مقارنة مع كثير من المجالات العلمية الأخرى.

٢ ـ وبطؤ النمو فى البداية فى الإنتاج الفكرى العالمى المكتوب، ثم ازدياده بنسب عالية مما أدى إلى عدم قدرة الباحثين على المتابعة والتعامل الفورى مع هذه التغييرات المفاجئة واستلزم بعض الوقت لتطويعه والسيطرة عليه، لخدمة أغراض الببليولوجى.

٣ ـ التقنيات الحديثة، والتكنولوجيات المعاصرة وتأثيرها على المفاهيم فى مجال المعلومات والاتصالات ككل، والتى تأخر ظهورها إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

٤ ـ عدم وضوح الرؤية حول كثير من المفاهيم المتعلقة بالمجال العلمى الرئيسى الذى ينتمى إليه الببليولوجى، وأعنى بذلك مجال المعلومات والاتصالات.

أما الجانب الآخر الذى أثار فضولى كباحث، فكانت الظاهرة التى اتسم بها الببليولوجى فى تطوره، والتى لا تتطابق بصورة منطقية مع نظرية التطور الطبيعى للعلوم، فعادة تنشأ العلوم بمفاهيم شاملة، ثم تأخذ خلال مسارها التطورى صفة التخصص، بمعنى أنها تبدأ من الشمول وتنتهى إلى التخصص العلمى، وهو عكس ما حدث ـ تماماً ـ مع الببليولوجى، حيث بدأ بمفهوم متخصص ضيق «الكتاب»، وانتهى إلى مفهوم أشمل وأرحب «الاتصال المكتوب». وهو أمر بدا لى غريباً من الوهلة الأولى. إلا أننى ومن خلال الرؤية التحليلية الشمولية، للمسار التطورى التاريخى للببليولوجى، ومن خلال تحليل المعطيات، والمناظير التى تعلقت بنشأته، توصلت إلى قناعة أن هناك فى هذا التاريخ وهذه النشأة ما يبرر هذا الموقف غير المألوف.

فبينما تعتمد معظم العلوم فى كافة المجالات المعرفية، فى قيامها على مسار طبيعيا يبدأ بملاحظة الظاهرة، وينتهى بالتنظير والتطبيق العلمى، نجد أن الببليولوجى أخذ المسار المعاكس تماماً، فقد بدأ بالتطبيق من خلال مهن ممارسة بشكل عملى فى المجتمع، وحول معطياتها إلى ظواهر اجتماعية، ليبدأ بها مسيرته العلمية، وهو عين ما حتم على الباحثين والعلماء والمهتمين بهذه القضية، أن يبحثوا وينقبوا فى هذا الكم من الممارسات والتطبيقات المهنية على نقطة ارتكاز لها أبعاد فلسفية وإجتماعية، يبدؤن منها رحلتهم التنظيرية، ويصلون بها فى النهاية إلى استيعاب كل الممارسات التطبيقية والعملية، وإضفاء صفة الشرعية العلمية عليها، ووجدوا ضالتهم فى «الكتاب» كقيمة اجتماعية، وإنتاج عقلانى، يعكس الفكر الاجتماعى الفلسفى للبشرية، وله ـ أيضاً ـ مكانته العلمية بين أوساط المثقفين والمفكرين والعلماء. ولذا فإن انعكاس مسار التأصيل للعلم، أوجب انعكاس مسار التأصيل فى المفاهيم.

٦ ـ الخاتمة: كلمة أخيرة

من الواضح أن التأريخ للببليولوجى ليس بالأمر السهل، فالأحداث المتعلقة بذلك التاريخ حدثت خلال فترة تقل بقليل عن قرنين من الزمان، منذ أن كان الببليولوجى يعنى «علم الكتاب» إلى أن تحول إلى «علم الاتصال المكتوب»، من خلال اقترانه فى فترة زمنية بمفهوم «علم الكتابة»، ويمكن أن نؤكد من خلال دراستنا لهذا التاريخ، أن القرن التاسع عشر يعد ـ بحق ـ القرن الذى تم فيه الفصل مابين المفاهيم المتعلقة بالببليولوجى، من تلك المتصلة بالببليوجرافيا كتقنيات أو كعلم، وكذلك ـ يعد ـ فترة انفصال عن المفاهيم المتعلقة بتقنيات المكتبات أو تاريخ الكتاب.

وسيشار دائماً إلى القرن العشرين على أنه القرن الذى تم فيه اكتشاف مفاهيم الببليولوجى وأهدافه الأساسية، بالمقارنة مع تلك الخاصة بعلوم المعلومات والاتصالات.

ويمكن ملاحظة أن التطورات والتغيرات حول هذا العلم لم تتوقف، مما يدل على أنه لم يصل بعد إلى حالة الاستقرار الكامل، وإن كان قد وصل إلى مرحلة الحد الأدنى من الاستقرار، بحيث يمكن تصنيفه كعلم من علوم المعلومات والاتصالات، له تطبيقاته العلمية، ومناهجه البحثية، القائمة على إساس تنظيرى سليم، والمستند بدوره على فروض علمية نابعة من ظواهر اجتماعية قائمة على الملاحظة والمشاهدة العلمية.

الهوامش

1- Peignot, Gabriel. Dictionnairre raisonné de bibliologie, Paris: Villers, Anx, 2 vol.

2- Otlet, Paul. Traite de documentation: le livre sur le livre; theorie et pratique. Bruxelles: Van Keerberghen, 1934.

3- Muskowski, Jon. Sur la Statistique International des impremes" In: Congres international des bibliothecaires. Prague, 1926. T2: Proces verbal et memoires,p. 412-422.

4- HERTZEL, D.H.History of develop;ent of ideas in bibliometrices. In: Ency. of lib. and Inf. Sciences. 1985,p. 144, 145.

[تم ترجمة هذا المقال من قبل كاتب البحث، ونشر فى مجلة المكتبات والمعلومات العربية ١٩٩٣، ع٤]

5- DEBURE, G.F. Bibliographie Instructive ou Traite de la connaissance des livres rares et Singuliers. Paris, 1763 / 1780.

٦. أنظر: المرجع رقم (٤) ص.٤٢٢. وكان مصدر الكاتبة لهذه المعلومة.

SCHNEIDER, Georg. Theory and History of Bibliography, Translated by Ralph. SHAW, Columbia University Press, New York: 1934; theoretical Historical Portion of Handbuch der. Bibliographie, 3rd. ed. 1926, P.272.

7- ESTIVLS, R. GENERALITES. IN: IXe Colloque International de Bibliologie(1)*. 20-24 Mars, 1990, p.I6

٨. المرجع السابق:، ص: ١٧.

9- WYNDHAM, HULME E. Statistical Bibliography in relation to the Civilization Lectures. Mars 1922. Butler and Tanner, Grafton, London: 1923, p.9.

١٠. للتعرف على إمكانية تطبيق هذه المناهج، راجع بحثنا المنشور فى مجلة المكتبات والمعلومات: محمد جلال سيد محمد غندور. مناهج البحث فى

(1)* L'Association International de Bibliologie et L'Institot de Presse et des Sciences de L'inpormation.

علوم المعلومات ـ مجلة المكتبات والمعلومات العربية، س١٣، ع٣، يوليو ١١٩٣، ص: ٤٥ ـ ٧٦.

١١. Bibliopolie، مصطلح مكون من شقين Polie, Biblio، والشق الأول معنى «كتاب» وقمنا بشرحه بالتفصيل فى بداية الدراسة، أما الشق الثانى Polie، ويعنى مصقول أو منقح، وأعتقد، أن بينو PIENOT، أراد باستخدام هذا المصطلح الذى يعنى «الكتب المصقولة» أو «الكتب المنقحة»، أن يفرق ما بين الكتاب الذى ينتج ويوزع لأغراض أكاديمية وعلمية، وهو ما يجسده هذا المصطلح، وبين الكتاب الذى ينتج ويباع للأغراض الثقافية العامة والقراءة الخفيفة والترفيه.. وتتضح هذه الرؤية من خلال تفسيره واستخدامه لهذا المصطلح مقارنة بمصطلح Librairie الذى استخدمه للتعبير عن الفئة الأخرى من الكتب الثقافية العامة. وعلى أى حال فإن مصطلح Bibliopolie لم يكتب له الزيوع والانتشار، مما يدل أنه لم يلق استجابة إيجابية من جمهرة الباحثين.

١٢. أنظر: المرجع رقم (٧) ص: ٣.

13- LAROUSSE, Pierre. Dictionnaire Universel du XX Siecle, LAROUSSE, Tome 11, P. 1867.

14- HOUDE, Roland. Bilan de la bibliologie et histoire de mot. Revue de Synthese, 1934, p.45 - 52.

١٦. أنظر: المرجع رقم (٢).

١٧. أنظر: بحثنا حول هذا الموضوع فى:

محمد جلال سيد محمد غندور: مصطلح الببليومترى: دراسة تحليلية، مجلة المكتبات والمعلومات العربية، سن ١٣، ع٤، سبتمبر ١٩٩٣.

18- MALCLES, L. N. La bibliographie, Paris, PUF, 1962.

19- OXFORD ENGLISH DICTIONARY, 1933. Vol. 1, p. 347.

٢٠. تم طرح بعض هذه الآراء والأفكار فى المرجع رقم ٧، ص: ٥.

21- VARET, G. Histoire et Svorir: Introduction theorique a la bibliologie: les champs articules de la bibliographie philosophique. Paris, Les belles lettres, 1956.

٢٢. يرى البعض أن هذا التوجه لم يتعد مرحلة التجميع والدراسات الوصفية، واستغلال المنظور التطبيقى للببليولوجى (جمع، معالجة، تحليل وصفى، تخزين، استرجاع، وبث للمعلومات المكتوبة).

٢٣. استند هذا السرد التاريخى على تحليل وتطوير وصياغة للأفكار التى وردت فى:

ESTIVALS, R., La bibliologie, Presse Universitaire de France. qui Sais, je?, 1987. p.11

٢٤. أنظر: البحث حول قضية نشأة مصطلح الببليومترى، مرجع رقم ١٧.

25 - ESTIVALE, R. La Bibliometrie, Bibliographique. Lille, Service de reproduction des theses de l' Universite de lille 3, 1971, 2vol.

26 - La Documentation en France, 1945, no. 7, p. 198.

٢٧. أنظر: المرجع رقم ٢.

٢٨. تم عرض نظرية أوتليه فى نشأة الببليولوجى فى هذا البحث تحت العنوان الجانبى: (٣. نشأة العلم).

٢٩. أنظر: المرجع رقم ٢.

٣٠. أنظر: المرجع رقم ٢.

٣١. أنظر: المرجع رقم ٢.

٣٢. أنظر: المرجع رقم ٣.

33- JAVAL, E. F. Physiologie de la lectire et de l'ecriture, Paris, Alcan, 1905.

٣٤. فيما بعد، وعندما استقرت المفاهيم التنظيرية حول الببليولوجى تم تضمين هذا المفهوم كأحد المناظير الفرعية لنظرية علم الاتصال المكتوب تحت ما يسمى بالمنظور العلمى La bibliologie Scientifique.

35- MORNET, Daniel, Les ensingnrmrnt des bibliotheque privees (1750 - 1780). Revue d' histoire litteraire de la france, Juillet - September 1910.

٣٦. أنظر: المرجع رقم ٣.

٣٧. روبير اسكاربيه. ثورة الكتاب. ترجمة اللجنة الوطنية اللبنانية، باريس: ١٩٦٣، يونسكو (١٩٦٥ / ١٩٦٦).

٣٨. أنظر المرجع رقم ٧. ص: ١٠.

٣٩. أستميح القارئ عذراً باستخدامى هذا التعبير الروائى غير العلمى الذى لا محل له فى هذا «المنظور العلمى» حيث لامكان للهواجس والظنون أو الصدف والتنبؤات غير المحسوبة علمياً، ولكنى لم أجد فى جعبتى اللغوية تعبيراً أفضل منه لإيصال رؤيتى البحثية «العلمية» ـ حول هذه المسألة ـ إلى القراء.

٤٠. أنظر: محمد جلال سيد محمد غندور. المدلول اللغوى والاصطلاحى للكتاب: دراسة تحليلية. مجلة الاتجاهات الحديثة فى علوم المكتبات والمعلومات، س ٢ ع ٣، ١٩٩٥.

٤١. أنظر: المرجع رقم ٧، ص: ١٤.

٤٢. أنظر: المرجع رقم ٤٠.

43- UNESCO, Anatome d'une annec International: L'annee du livre, 1972, L'UNESCO, PARIS, 1972. p.7

44 - ESTIVALS, R. Bibliologie et prospective. In : CAIN, Julien, ESCARPIT, Robert, MARTIN, Henri - Jean, le livre francais heir, aujourd' hui, demain. Paris. Imprimerie nationale, 1972.

٤٥. أنظر: إلى المرجع رقم ٧.، ص: ١٢.

٤٦. أود أن أوجه عناية القارئ إلى أن الأسس التى ارتكزت عليها هذه اللجنة العلمية لم ترد فى المصادر المكتوبة بهذه الصورة التى أوردتها فى هذا البحث، سواء من زواية الترتيب الشكلى أو الموضوعى، بل وردت بصورة مجملة فى كتابات الباحثين، وقد استقيت معظم معلوماتى ـ فى هذا الصدد ـ من واقع كتابات روبير استيفال R. ESTIVALS أحد أعضاء هذه اللجنة، ومن خلال المناقشات والمحاورات العلمية التى أجريتها معه فى فترة إشرافه العلمى على أطروحتى لدكتوراه الدولة التى حصلت عليها من جامعة بوردو ٣ بفرنسا، ١٩٩٠.

47 - ESTIVALS, R. LES Sciences bibliologique. Schema et Schematisation. No. 1981, p. 21.

48 - ESTIVALS, R., le livre en France, Paris, Retz, SBS, 1984.

49 - Le Colloque International d'Hammamat, 1985, Institut de Presse et des Sciences de l'Information (I. P. S. I.) de Tunis. Shema et Schematisation, no. 22, 1985

50 - ESTIVALS, R. Regards sur la Coopration Intetrnationale en bibliologie, Lecture, No. 44, Juillet - aout. 1988, p. 2-3.

51 - Editorial. Schema et schematisation: Revue de la bibliologie, no. 24, 1987. p.5

٥٢. المصدر: وثائق عمل المؤتمر المذكور، حيث شاركت فى أعمال هذه الندوة بورقة عمل تتعلق بمكنز فى مجال الببليولوجى

"Thesaurus dans le domaine de la Bibliologie"

٥٣. فرنسا، بلجيكا، سويسرا، ألمانيا، إيطاليا، بلغاريا، المجر، بولندا، رومانيا، تشيكوسلوفاكيا، كندا، تونس، المغرب، الجزائر، السودان، لبنان، الأردن، اليمن، ساحل العاج، السنغال، الكنغو، توجو ومدغشقر.